الشعر العربي والذوق المعاصر

الدكتور محمد كامل حسين

سلسلة شهرية
تصدر عن دار مجلة الاذاعة والتليفزيون

سلسلة شهرية

تصدر عن دار مجلة **الإذاعة والتليفزيون**

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير

بشروت أباظة

الشعر العربي والذوق المعاصر

الدكتور
محمد كامل حسين

* الاخراج الفنى : مكرم شحاته

* الغلاف تصميم الفنان : جوده خليفة

مقدمة

لم يستقر لى فهم الشعر العربى الا حين قدرت انه على ضربين، سعر الاحتراف وشعر الطبع ، وهما يختلفان اختلافا شديدا فى الروح والموضوع والاسلوب والاغراض . ولنا ان نصفهما فنين متباينين لا يجمع بينهما الا أن كليهما كلام منظوم على نحو واحد .

وليس من الضرورى فى شعر الاحتراف ان يكون صاحبه قد تكسب به فعلا ، وان كان أكثره عاد على الشعراء بالصلات السخية ، وانما اعنى به الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن أشياء لا تمس اعماق نفسه ولا تصدر عن عواطفه . وعمل الشاعر فى هذا الشعر اشبه الاشياء بعمل الصائغ الماهر الذى يعنيه أن يخرج حلية جميلة تدل على المهارة ودقة الصناعة ، ولا يدعى احد ان الصائغ بهذه الصياغة الماهرة يعبر عن نفسه ، واكثر الشعر القديم من هذا التراث . وكان النقاد القدماء يعنون بهذه الدقة والمهارة ويعجبون بها ، ولهم الحق كل الحق فى ان يعجبوا بما يروقهم ، ولكنا لا نستطيع ان نجاريهم فى استحسان كل ما استحسنوه ،ولا ان نقيس جمال الشعر بالمقاييس التى وضعوها

لتقدير هذا الجمال ، بعد ان تغير رأينا في هذا النوع من الشعر ، شعر الاحتراف .

اما شعر الطبع فهو الذى يتحدث فيه الشاعر عن احساسه وعواطفه وما يشعر به من حب او كره وما تركت فيه الحياة من اثر ، والدافع اليه صدق العاطفة وحسن الأداء الذى يحمل القارىء على ان يتأثر بهذه العواطف كما تأثر بها صاحب الشعر .

شعر الاحتراف اعذبه اكذبه ، والجمال فيه يرجع الى الصياغة ، ولم يكن يراد منه الا ان يكون حلية يفخر بها الممدوح ويزين بها صدره . والعبرة فيه بذوق الممدوح . فهو الذى يحدد ما يستحسنه ، وهو يجزى الشاعر على قدر هذا الاستحسان ، ولم يكن منهم من يعنيه أن يعرف شيئا عن عواطف الشاعر او احساسه ، بل لعلهم كانوا يضيقون صدرا بمثل هذا القول اذا حاول الشاعر ان يقحمه على قصيدته . ومن هنا كان شعر الاحتراف يعنى بالمحسنات اللفظية أو المعنوية التى يرجى لها الذيوع ، فتسير في الآفاق ويتحدث بها الركبان ــ على حد قولهم ــ ومن ثم اسرف الشعراء في الغوص على المعانى البديعة التى لا تعني في الواقع شيئا ، وعنوا بالتشبيهات الغريبة واكثرها معاد في معناه والفاظه . هذا سر ما دعا اليه القدماء من التمسك

بعمـود الشـعر ، وهو ما نسـميه فى العصر الحاضر الاكلاشيهات .

اما شـعر الطبع فاعنبه اصـدقه ، واجوده خال من المحسـنات اللفظية او المعنوية ، واسلوبه مستقيم واضح ، فيـه جـد وصرامة وعواطف انسـانية يدرك صدقها اكثر الناس ، وهـو ما لا نراه فى شعر الاحتراف الذى اكثره محلى موقوت، ولا يمكن أن يصبح ذا قيمة انسانية عالمية . واذا كان اكثر الشعر العربى القديم شعر احتراف ، وكان فحول الشعراء يتفاضلون بما فى شعرهم من صنعة ، فالعصر الحاضر يابى ذلك تماما . ويفضل عليه شعر الطبـع . وعلينا أن نقدم الى المتعلمين المعاصرين ما فى الأدب العربى من شعر له قيمته الانسانية العـامة ، وان ندع شـعر الاحتراف للمتخصصين ولمن يستهويهم هذا النوع من الجمال ، وهم قلة فى عصرنا هذا ، ولا اعنى بشعر الطبع ما كان القدماء يصفونه بانه « الشعر المطبوع الذى يغرف فيه الشاعر من بحر ، على حين أن غيره ينحت من صخر » هذا كلام عام لا يغنى شيئا فى اقبال الناس على الشعر القديم او الاعجاب به . ومن شعر الاحتراف ما هو جيد وما هو دون ذلك ، وشعر الطبع فيه الجيد وفيه الغث، ولكل من هذين الفنين مقاييس تختلف عن مقاييس الجمال فى الفن الاخر .

•

وسنبدأ بشعر الطبع لانه اقرب الى عقولنا واذواقنا ، والمثقفون احرى ان يفهموه وقد يقبلون عليه بعد ذلك ، وقد يتبع هذا الاقبال شيء من الاعجاب اوالحب لهذا اللون من الوان الادب . وسنذكر بعد ذلك شعر الاحتراف الذى لا يعجب به فى العصر الحاضر الا الذين دربوا على هذا الشعر وخصائصه .

المعلقات

يظن أكثر الناس أن المعلقات من الشعر القديم الذى يصرفنا عن تذوقه ما فيه من غريب الكلام وعجيب التشبيهات ، وليس هذا صحيحا ، واذا اخترنا الأبيات التى تتفق وأذواقنا فسنجد أن كثيرا منها من شعر الطبع الذى لم تفسده العناية بالصياغة .

ولا أريد أن أتناول بالبحث تاريخ الأدب ، فهذا علم له علماؤه وأكثر عنـــايتهم تتعلق بالمذاهب المختلفة ، ويتأثر كل مذهب بما سبقه ، وأثره فى المذاهب اللاحقة ، ونراهم يرجعون فى ذلك الى المقارنة بين اللهجات ومذاهب التفكير ، وهى بحوث طريفة ، وقد تكون ضرورية فى معرفتنا بالأدب معرفة كاملة ، ولكنها لا تزيد فى قدرتنا على تذوق الشعر أو تقدير الشعراء . وسنقصر بحثنا فى المعلقات على ايضاح ما فيها من شعر الطبع . ولن نبحث فى ما يقال عن الشك فى نسبة القول الى قائله ، وسنعتمد فى الأغلب على ما يدل عليه الشعر من تكامل شخصية الشاعر ، واتساق عقليته وما يكون من أثر ذلك فى احساس الناس عامة بأن هذه خبرة انسانية حقة .

قيل ان المعلقات سميت كذلك لانها علقت على أستار الكعبة، ولا احسبها علقت فعلا عليهـــا فى أى وقت من الاوقات . وانما هو نوع من التقدير ، كأنهم يقولون انها جديرة ان تعلق على استار الكعبة . ويذكرنى ذلك بأثر من آثار فلورنسا له أبواب سميت ابواب الجنة . والسبب فى اطلاق هذا الاسم عليها أن احد كبار الفنيين مر بها يوما فقال هذه ابواب الجنة فأطلق هـذا الاسم عليها منذ ذلك الحين .

يشك الكثيرون فى نسبة بعض ما جاء فى المعلقـات الى من ينسب اليهم (١) . وفى روايتها اضطراب واختلاف كثير ، وزيادة فى بعض أبياتها ونقص فى البعض الآخر . ظاهرة الشك فى نسبة الشعر القديم الى قائله معروفة فى تاريخ الآداب القديمة عند أكثر الامم . والشعر قبل عصر التدوين يقوم على الذاكرة وحـدها والخطأ فيها كثير ، عن قصد أو غير قصد ، والشك لا ينقص من قيمة هذه الروايات من حيث هى فى كثير من الحالات تمثل روح العصر تمثيلا صادقا .

وقد علمتنا العلوم الحديثة التى تسود عقلية هـذا العصر أن الحقيقة التاريخية هى وحدها الجديرة بأن تسمى حقيقة . والواقع أن هناك أنواعا أخرى من الحقيقة مثل الحقيقة النفسية والشعرية والجمالية ، وان لم يكن من الضرورى أن تكون امورها قد وقعت فعلا . وأذكر أن (جوته) له رأى فى هـذا الموضـوع . فهو يقول أن عبارة « أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك » تدل على نفسية العصر الذى يقال انها قيلت فيه ، ويجب أن نعدها صـادقة وان كانت نسبتها الى قائلتهـا (مدام رولانت) مشكوكا فيها . وهو يقول كذلك « اذا كان الرومان من عظمة

---

(١) الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين .

النفس بحيث يخترعون قصة (لوكريتيا) فمن حقهم علينا أن تكون من عظمة النفس بحيث نصدقهم فى ذلك » .

قد يكون امرؤ القيس شخصا له حقيقة تاريخية ، وقد يكون ما يروى عن حياته قصصا وخيالا ، ولكنا نرى فى ما روى عنه شخصية متكاملة يصح أن نتعمق فى درسها ، وأن نبين ما فيها من دلالات على روح العصر الذى قيل انه وجد فيه ، وعلى حياة المجون التى كان الشباب يعيشها فى البادية حين ذاك .

معلقة امرىء القيس لها مقام خاص عند النقاد القدامى . فكانت تضرب بجودتها الأمثال ، وكان يقال فى مدح قصيدة ما أنها خير من « قفانبك » وهو مطلع معلقة امرىء القيس وسنعدل فى هذا البحث عن الشروح التى شرح بها النقاد قديما هذه المعلقة ولن نتحدث عن غريبها ولا عن تشبيهاتها واستعاراتها التى أعجب بها شارحوها .

يقوم شرح النقاد القدماء للأدب العربى عامة وللشعر خاصة على مبدأ عام يسود أسلوبهم فى النقد وهو أن دراسة الأدب وسيلة لتعلم اللغة ، ونحن نرى أن اللغة يجب أن تكون وسيلة لدراسة الأدب ، والموقفان مختلفان أشد الاختلاف .

* * *

كان الشاعر يسير مع صديقين له فى الصحراء فدعاهما الى الوقوف حتى يتمكنوا من اداء حق حبيبته عليه ، وهو البكاء عند منزل بعينه يقع عند انتهاء طريق الرمل الخفيف الذى هو طريقهم فى الصحراء (سقط اللوى) ويقع هذا الطريق بين اربع قرى سماها بأسمائها ، وذكر لهم أن فى هذه القرى أطلالا لم تتهدم (لم يعف رسمها) رغم ما هب عليها من رياح شمالية وجنوبية كانت جديرة أن تمحوها ويعجبنى قوله (نسجتها) كأن

الرياح فى هبوبها من جهتين مختلفتين تنسج الاطلال كما ينسج الثوب ، وهى صورة جميلة .

قِفَانَبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ
بِسقْطِ اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمل[1]
فَتُوضِح فالمِقْراة لم يَعفُ رسمُهَا
لِمَا نَسَجَتْها من جَنوب وشَمْألِ

ويأتى بعد ذلك بيت عجيب يصف فيه (بعر الآرام) الظباء فى ساحاتها (عرصاتها) وما انخفض من الأرض (قيعانها) ويشبهه بحب الفلفل . فاذا كان هذا تشبيها فهو شعر عقيم ، بل قد يكون سخيفا ؛ والشعراء يجب الا يعنوا ببعر الآرام ولا بتشبيهه بحب الفلفل . على انى أرى لهذا البيت قيمة خاصة حيث جاء فى موضعه تماما ، فهو يدل على أن الأحباب تركوا هذا المنزل منذ عهد بعيد جفت فيه مخلفات الظباء حتى أصبحت جامدة . وعندى أنه يدل على صدق الواقعة ، ولو كان يريد جمال الصنعة لاغفل هذا البيت :

---

(١) شهرة هذا المقطع لا ترجع الى ما فيه من صنعة وانما ترجع الى ما فيه من تصوير صادق لحادث وقع فعلا فى الصحراء وفيه صورة للمسافرين فيها لا تخلو من جمال لصدقها.

ولا عبرة بما قال الشراح الذين تعودوا نقد شعر الاحتراف ، وسأسميهم بعد الآن شراح الاحتراف من ان فى البيت الاول صنعة جيدة ، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الاحباب والمنازل فى شطر بيت واحد ، وهو نقد لا نرى فيه دليلا على جمال خاص . ولا عبرة بقولهم أن الرياح كانت تهب من ناحية فتغطى الرسوم بالرمال ، ثم تهب عليها الرياح من جهة اخرى تذهب بما غطى المنازل من رمال اذ ليس فى هذا تصوير جميل .

تَرَى بَعَرَ الآرامِ فى عَرَصاتها وقيعَانها كأنّه حَبُّ فلفل

* * *

احسب أن هـــذه المعلقة ليست الا مجموعة من المقطوعات الصغيرة ذات الأبيات القليلة ، جمعت بعد ذلك لأنها على وزن واحد وروى واحد (١) . والحوادث التى يصفها الشاعر مستقلة بعضها عن بعض وان كان أكثرها يتعلق بمغامراته مع النساء .

يبدأ الحديث عن مغامرات امرىء القيس بدعوة صديقيه أن يمرا بمعه على أم جندب ليقضوا حاجات (لبانات) الفؤاد المعلل . واظن ان أم جندب هذه كانت لها دار فى الصحراء يؤمها الشباب ليشربوا ويمرحوا ويعبثوا كما يشــاء لهم العبث . وهناك يحكى الشبان مغامراتهم . ومثل هذه البيوت كانت معروفة عند العرب وعند غيرهم من الأمم القديمة حيث كان البغاء أمرا معترفا به . وقد نهى القرآن الكريم عن ارغام الفتيات على البغاء أن أردن ان يتعففن عن ذلك .

---

(٢) يرجع ذلك الى ان فيها عددا من الابيات تشبه مطالع القصائد تكون القافية فيها واحدة فى شطرى البيت مثل قوله .

أَلا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلى
بِصُبح ، وما الإصباحُ منك بأمثلِ

وقوله :

أفاطِمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ
وإن كنتِ قد أزمعتِ هَجْرى فأجملى

ولا اسمى هذا تصريعا لاختلاف المعانى اختلافا تاما .

خليلى مرّا بى على أم جندب(١)

لأقضى لُبانات الفؤادِ المعلَّل

وتأتى بعد ذلك مغامرات كثيرة أولاها ما ذكره من حادث وقع له مع بعض العذارى .

وكان هذا يوما مشهودا لم يستطع امرؤ القيس أن ينساه ، ولا شك أنه ذكره ليفاخر به أقرانه . وخلاصة هذه المغامرة أنه لقى فى احدى رحلاته فى الصحراء بعض العذارى ، فذبح لهن مطيته ، وأهل البادية يعدون ذلك كرما ليس بعده كرم ، لأنه يضحى بمطيته التى تحمله فى أسفاره . وعجبن من رحلها (المتحمل) ثم يقول أن العذارى كان يرمى بعضهن بعضا بلحمها وشحمها الذى كان كأطراف الحرير المفتول (كأهداب الدمقس المفتل) . وقد عكف شراح شعر الاحتراف على تفسير هذه الكلمات ، أما نحن فتعجبنا الصورة المرحة التى فى هذين البيتين ، وكأنا نراهن يتضاحكن ويجرين ويرتمين باللحم فى سرور واضح ، وهى صورة مشرقة تعجب المحدثين أكثر مما يعجبهم تشبيه الشحم بالحرير المفتول . ولا أشك أن هذه المغامرة وقعت

---

(١) ذكر امرؤ القيس أم جندب فى قصيدة أخرى على أنها من النساء المحجبات وأنها كانت تتفوق على أقرانها بالخفر ، وسنرى فيما بعد أن امرأ القيس كان ينخدع كثيرا بالنساء فيظن صاحباته من الخفرات ارضاء لنفسه وكبريائه .

فعلا ولا نجد مثلها كثيرا عند غيره من الشعراء . (١)

ويذكر الشاعر بعد ذلك مغامرة له مع عنيزة ، ولا يعنينا ما يدعيه الشراح من أنهم يعرفون عنيزة هذه ، وانما يعنينا أنه دخل عليها الخدر أو الهودج الذى كانت فيه فوق بعيرها ، ولم تقابل عنيزة دخوله عليها بالرضى (لك الويلات) . حسب امرؤ القيس ان هذه عبارة تودد كما يقال قاتلك الله ، ثم ظهر له انها تريد منه أن ينزل ، لأنه سيعقر بعيرها لثقل حملهما عليه . ولم يرض الشاعر عن هذا العذر وقال لها سيرى وأرخى زمام البعير حتى لا أحرم رضابك (جناك المعلل) .

ويومَ دخلتُ الخِدرَ ، خِدرَ عنيزةٍ
فقالتْ لك الويلاتُ إنك مُرجلى
تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معا
عقرتَ بعيرى يا امرأ القيسِ فانزل
فقلتُ لها سيرى وأرخى زمامَهُ
ولاتُبعدينى من جَناكِ المعلل

---

(١) وردت مثل هذه القصة فى بعض احاديث الفرزدق . وفى راينا ان الفرزدق انتحلها او انتحلت له لأنه كذلك كان فى حاجة الى ذكر مغامرة ناجحة . وزاد الرواة ان ذلك حدث حين كان العذارى يسبحن فى بركة ماء وانهن تركن ثيابهن ، فاخذها امرؤ القيس ليرغمهن على الخروج عاريات . وهى حيلة كانت جديرة ان تغضب العذارى لو كن بريئات ، وهو ما لم يحدث . والقصة على هذه الرواية ليست مقبولة تماما لان احدا لم يغضب لهذه الحيلة غير البارعة .

ولعل امرأ القيس ذكر انهن عذارى حتى يكون موقفه منهن موقفا بريئا ، اذ لم يكن له مارب عندهن كما سنبين ذلك فى ما بعد .

وغضب امرؤ القيس لوقفها منه وقال لها كيف لا ترضين بقربى ، مع أنى قد اطرق بيت الحامل والمرضع فالهيها عن طفلها الرضيع الذى لم يتجاوز العام عن عمره (ذى تمائم محول) ويجىء بعد ذلك بيت ظاهره فيه فحش ولا يقول بفحشه الا صاحب خيال مريض ممن لا علم له بالنساء ، وهو بيت برىء جدا لا يعنى الا انى الهيتها عن رضيعها ، فلما بكى تحولت اليه وبقيت مع ذلك على حالها من مجلسها لتستمتع بحديثى ، وهو نوع من التفاخر ورد كثيرا فى شعر امرىء القيس عند ذكر مغامراته مع النساء :

فمثلكِ حُبلى قد طرقتُ ومرضعاً
فألهيتها عن ذى تمائم محول

إذا ما بكى من خَلفها انصرفت له
بشقٍّ ونحوى شقُّها لم يحول

لم وقع له حادث مع فاطمة ولم يكن الحديث بينهما لينا ولا عذبا ، ولا اشك انها كانت من انداده فلم تكن من نوع المستهترات اللاتى يذكرهن امرؤ القيس فى مغامراته العديدة التى ذكرها بعد ذلك . يقول لها انه ضجر بتدللها حتى أصبح لا يطيقه، وان كان على حبه لها باقيا . وطلب اليها فى جد وصرامة ان تحسم الامر بينهما ، فاما هجر واما وصال . فان كان هجرا فلتكن معه رقيقة فى هجرها له (اجملى) . وهو يسألها فى كثير من الدهشة هل ساءتها منه خليقة ، فان كان قد وقع منه شىء يغضبها ولا يعرفه هو ، فلتقطع ما بينهما من ود غير موصول ولا مقطوع . والتساؤل هنا جميل يدل على انه لم يخطر بباله أن

يسىء اليها . وأبلغ من ذلك انه يدل على انه لا يعرف ان كان اساء اليها ام لا .

أفاطم مهلاً بعضَ هذا التدلُّل
وإن كنتِ قدأزمعتِ هَجْرى فأجملى
وإن تَكُ قد ساءتكِ منى خليقةٌ
فسلِّى ثيابى من ثيابكِ تنسل

يأتى بعد ذلك البيت الذى يقول فيه :

وإنك قَسَّمت الفؤادَ فنصفَه قتيلٌ ونصفٌ فى حديد مكبَّل

مثل هذا القول لا قيمة له وهو مصنوع من غير شك وصانعه لا علم له بالشعر ، وهو كلام معاد لا غناء فيه .

أما البيت الذى يقول فيه :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهمَيْكِ فى أعشار قلبٍ مقتَّل

قد يكون فى هذا البيت جمال وان كان كلاما مألوفا ، والواقع انه لا موضع له فى الحديث بين الشاعر وصاحبته التى اسرفت فى التدلل عليه والتى يخاف هجرها لا يمكن ان تكون قد ذرفت عيناها بالدمع ولا يمكن أن تكون قد ضربت بسهميها فى قلبِ حبيبها المقتل .

* * *

. جرب امرؤ القيس حظه مع الخفرات البيض فاخفق فى اجتذابهن اليه ، وبعد ان يئس من مثل عنيزة وفاطمة اخذ يتودد الى نوع آخر من النساء ، ظنا منه انه سيجد لديهن من الاقبال عليه ما لم يجده عند هؤلاء .

من ذلك انه روى قصة وقعت له مع امراة عفيفة محجبة (بيضة خدر) من اللائى لا يجرؤ احد على ان يدخل عليها خيمتها (لا يرام خباؤها) وانه تمتع باللهو معها فى غير عجلة (غير معجل) ، وانه تجاوز اليها الاحراش ، وانه كان حول خبائها رجال اشداء حريصون على قتله سرا (يسرون مقتلى) لو استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وبيضةِ خدر لا يرام خباؤها تمتعتُ من لَهْوٍ بها غير مُعْجَل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً على حراصا لو يُسرون مَقْتَلى

ثم قال انه صعد الى خبائها بعد ان خلعت ثيابها استعدادا للنوم (نضت لنوم ثيابها) ، فوجدها خلف الستر وليس عليها الا قميص النوم (لبسة المتفضل) . فلما لقيته عتبت عليه انه لا يزال على غوايته القديمة ، وانه لا يزال صاحب حيلة وهو كلام يقوله النساء جميعا يردن بذلك اظهار اعجابهن بشجاعة الرجال .

فجئتُ وقد نَضَتْ لنوم ثيابها لدى السِّتر إلا لِبْسَةَ المتفضل
فقالتْ يمينَ اللهِ ما لكَ حيلةٌ وما إن أرى عنكَ الغَوَايةَ تنجلى

ثم تأتى بعد ذلك ابيات فيها بعض الغريب وفيها اسم الشعب الذى سارا اليه (بطن خبت) والشراح القدماء يبذلون جهدا فى شرح هذا الغريب ولا نرى ان ذلك يفيد كثيرا فى فهمنا للصورة الشعرية التى ارادها الشاعر . وكل ما اراده هو ان يقول انه

خرج مع حبيبته المخدرة وخرجا من ساحة الحى ، وكان ثوبها فضفاضا طويلا أرادت به ان تمحو آثار اقدامهما حتى لا ينتبه اهلها الى ما فعلته بالليل .

ولما اصبحا وحيدين جذب اليه جانبى شعر راسها (هصرت بفودى راسها) وانها تمايلت عليه بخصرها الدقيق (هضيم الكشح) وساقها العبلة (ريا المخلخل) . والذى يعنينا من هذه الحادثة ويدل على صدقها أنها مما لا يعبا به الرواة ، ولا يختلقها المختلقون ، وعليها كل سمات الصدق . ولكنا نعجب كيف خدعت هذه المراة امرا القيس فحسب انها من المخدرات ، ولا يحتاج الانسان الى ذكاء خارق ليعرف ان المراة التى تجر وراءها ثوبها الطويل لتخفى على الناس ما تفعله بالليل لا يمكن ان تكون الا محترفة . وكان امرؤ القيس يقصد الى اقناع نفسه انها بيضة خدر يستعيض بنجاحه معها عن اخفاقه مع الشريفات حقا . ليست هذه الواقعة من النوع الذى يعنى به شعراء الاحتراف فيختلقها الرواة ، فهى صادقة من حيث انها تتفق ومزاج الشاعر وطبيعة الفاجرات وحرصهن على ارضاء الرجال ولو بدعوى الخفر والشرف .

اما كل ما جاء فى المعلقة بعد ذلك من وصف المراة فهو من الكلام المألوف الذى يستطيعه كل ناظم ، وكذلك وصفه لحصانه وأن له عجزا كالظبى وساقا كالنعامة فهذا من عبث القول الذى يستطيعه كل عالم باللغة . على أن الكلمات سجنجل وعقنقل وتدفل اخترعت اختراعا لتتفق مع القافية ، ولا اظن لها اصلا فى اللغة ، ومثلها فى شعر الاحتراف كثير ، أما ما جاء بعد ذلك فى المعلقة من وصف للبرق والجبل والوشى اليمانى فلا يتفق مع مزاج امرىء القيس ولا مع طبيعة تفكيره وهو ـ مصنوعا كان أم غير مصنوع ـ من شعر الاحتراف الذى لا يعبأ به احد من المثقفين المعاصرين .

وفى المعلقة بيتان يشير فيهما الى الرهبان حيث يقول فى أحدهما عن حبيبته انها :

تضيءُ الظلامَ بالعشاء كأنه   منارةُ ممسى راهبٍ متبتل

والبيت الآخر قوله :

يضيءُ سناهُ أومصابيحُ راهبٍ   أهانَ السليطَ بالذُّبال المفتَّل

على هذين البيتين مسحة من الصدق تدل على ان امرأ القيس كان يعرف الرهبان وكانوا كثيرين على مشارف الشام مما يلى الجزيرة العربية . واظن ان شعر الاحتراف لم يكن ليلجأ الى مثل هذه التشبيهات ، وانما يلجأ اليها من راى الرهبان وانوارهم فى الليل فعلا .

وهناك قصيدة اخرى لا تقل شهرة عن المعلقة ، بل قد تكون ادل على شخصية امرىء القيس وحقيقة مغامراته مع النساء . يروى الشاعر فى هذه القصيدة انه سعا الى محبوبته بعد ما نام أهلها . وعقب على ذلك بتشبيه غير ذى قيمة حيث يقول ان ذلك كان كسمو حباب الماء . فقالت له ما تعود النساء الفاجرات أن يقلن فى مثل هذه المواقف ، اذ حذرته من الناس الذين يسمرون بالقرب منها ، وانهم قد يعرفون مجيئه اليها . ولكن امرأ القيس لم يعبأ بهذا التهديد ، ولعله كان قد عرف قيمته من قبل . وأقسم لها انه سيبقى عندها ولو قطعوا راسه واوصاله عندها . ثم سمع زوجها فى حجرة قريبة يغط فى نومه كما يغط البعير الصغير حين يشد خناقه ، وبات ليلته معها على خير ما يريد ، لانه يعلم أن زوجها ليس بقتال ، وانه على كل حال لن يستطيع قتله ومعه سيفه ورماحه الحادة التى هى كأنياب الأغوال . والظاهر أن الأخلاق العامة والآداب لم تكن مرعية فى الجاهلية ،

ولا أدرى هل كان هذا الزوج فخورا ان أميرا كامرىء القيس يتعشق امـرأته ، أو أنه كان من الذين يريدون ابتزاز المـال من عشاق ازواجهم . على كل حال نرى أن هذه القصة وقعت له فعلا ، وذلك لأن شـعراء الاحتراف لا يعبأون بمثل هـذه التفصيلات .

وفى القصيدة بيتان يوضحان سرا فى تاريخ حيـاة امرىء القيس نسميه اليوم العقدة النفسية ، وكان لهما فيه أكبر الأثر ، وذلك حيث يقول ان امراة بعينها وصفته بأنه لا يحسن السر الذى يكون بين الرجال والنسـاء ، وأشفقت عليه فقالت أن ذلك لكبر سنه ، وليس هذا من الأمور التى يتناولها شعراء الاحتراف ورد عليهـا امرؤ القيس ردا عنيفـا اذ رماها بالكذب صراحة ، فانه لا يزال يستطيع أن يغرى العرس عن عريسها . وزاد على ذلك عبارة غريبة جدا ينفى فيها أن تكون امراته من اللائى يتحدث عنهن الرجال ، فهى تجد فيه كل ما تصبو اليه نفسها ولا معنى لهذه العبارة الا ان يكون قد سمع همسا ان امراته ليست مخلصة تماما له .

وأراد الشـاعر أن يتحقق من موقفه معهن فسـأل فاجرة عاهرا عما يكره النسـاء منه ، فوصفته وصفا مشهورا لا يتقنـه الا العاهرات ولا محل لذكره هنا .

كل هذا يدل على أن شعر امرىء القيس فى المعلقة وفى هذه القصيدة بالذات لم يكن شعر احتراف ، على الأقل فى الأجزاء التى ذكرناها ، أما ما بقى بعد ذلك منها فهو فى الغالب من عمل اللغويين المغرمين بالغريب وهو ما يتفق مع عقلية شعراء الاحتراف ورواده .

عمر بن أبي ربيعة

كان العصر الاموى عصرا ازدهر فيه شعر الاحتراف ، وكان اعجاب الخلفاء والعلماء والنقاد مقصورا على من كانوا يسمونهم فحول الشعراء من أمثال جرير والفرزدق والأخطل ، وكلهم من كبار شعراء الاحتراف . ولم يكونوا يحفلون بشعر الطبع ولا بشعرائه من أمثال عمر بن ابى ربيعة الذى شهد الدولة الاموية كلها .

وليس هذا عجيبا . فالخلفاء وكبار رجال الدولة كانوا يجزلون العطاء لشعراء الاحتراف وحدهم ، وكان الجمهور يتذوق المبالغات والاستعارات البعيدة والتشبيه الغريب وما كانوا يسمونه المعانى العويصة ، فكان ذوق الخلفاء وذوق الجمهور عاملين على نشر شعر الاحتراف . وليس لنا أن نعيب على أهل ذلك العصر ذوقهم الخاص ولكنا نعيب على من جاء بعدهم انهم قيدوا انفسهم بذوق شيوخهم السابقين ، لأن هذا لا يتفق وطبائع الأشياء ، ويقف بالحياة الفكرية عند حد لا تعدوه .

لم يكن هذا الموقف خاصا بالأمة العربية ، نرى ذلك فى حياة الامم كلها ، فكان الملوك والأمراء ـ الى قبيل العصر الحديث ـ اكبر المشجعين للفن والفنانين . ولما كان فن القول عامة والشعر خاصة هو اكبر فنون الأمة العربية فكان طبيعيا أن يقوم على تشجيع الخلفاء والأمراء .

لم يعترف كبار الشعراء الأمويين بشعر عمر بن ابى ربيعة لانه لا يتفق مع شعرهم ، ولم يعدوه من الفحول . ولما ذاع صيته وكثر شعره الغزلى غيروا من بعض رايهم فيه (١) . قال عنه جرير « ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر » . وقال عنه الفرزدق حين سمع بعض غزله « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فاخطأته وبكت الديار » .

والعجيب ان عمر بن ابى ربيعة لم يخضع للعوامل الاجتماعية التى رفعت شعر الاحتراف الى الذروة . قيل ان سليمان بن عبد الملك قال لعمر « ما يمنعك من مدحنا » ؟ قال « انى لا امدح الرجال ، وانما امدح النساء » . ولو ان كبار الشعراء العرب عدلوا عن شعر الاحتراف واهتدوا بشعر الطبع الذى يمثله شعر عمر لاتخذ الشعر العربى طريقا غير التى نعرفها .

وسأتناول بالبحث مسألتين : الأولى نوع المغامرات التى يحدثنا عنها عمر فى شعره ، والفرق بينها وبين مغامرات امرىء القيس ، والثانية اسلوب عمر فى القصص الشعرى . فهو اول من روى قصصه شعرا ، على حين ان القصص عند العرب كان اكثرها نثرا يتخلله بعض الشعر .

رأينا عند الحديث عن امرىء القيس أن مغامراته بدأت مع المخدرات من النساء ، ولكنهن اعرضن عنه واظهرن له عدم

---

(١) الاغانى . الجزء الاول ٦ اخبار عمر .

اقبالهن عليه ، وانهن يبرمن بتودده اليهن . فاضطر الى أن يجرب حظه مع الساقطـات فلم يجد عندهن ما يحببهن فيه ، رغم جاهه وحسـبه وماله الى ان ذكرن له صراحـة ما يزهدهن فيـه . وبذلك نرى فى شعره وروايته لمغامراته اثر اليأس وخيبة الأمل والجهد الضائع .

اما عمر بن أبى ربيعة فكان محببا الى النساء والى الشريفات منهن ، وكن يعجبن بهيئته ، مع أن الكثيرات منهن تحاشين ان يشهر بهن فى شعره فانهن كن يردن سرا أن يعرفنه وأن يعرفهن، ومنهن قريبات الخلفاء والأمراء . فلم تكن به حاجة الى ان يتحدر الى الساقطات كما فعل امرؤ القيس . ولعل هذا سر ما نراه فى شـعره من سـمو العواطف وما يدل عليه هـذا الشـعر من حب للحياة وفرح بها وتمتع بلذاتها .

ومن مغامراته اللطيفة ما حدث له مع صـاحبته التى قال فيهـا :

ولم أَقْضِ منها محرمًا غيرَ أنَّنا　　　كلانا من الثوب المُورَّدِ لابسُ

سئل عمر عن هذا البيت فقال خرجت اريد المسجد وخرجت زينب تريده ، فالتقينا فتواعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء ، فكرهت أن يرى بثيابها بلل المطر ، فيقال لها : الا « استترت بسقائف المسجد ان كنت فيه » . فأمرت غلمانى فسترونا بكساء خز كان على .

ومن طريف قصصه ما رواه عن نفسـه أنه كانت عنده جارية ، اذ جاءتنى جارية برسالة من عند جارية أخرى فجعلت تسارنى، ففارت التى كنت أحدثها ، فعضت منكبى ، فما وجـدت الم عضها من لذة ما كانت تلك تنفث فى اذنى .

روى صاحب الاغانى عددا كبيرا من هذه القصص الطريفة ، وعليها كثير من التشـــابه مما يحمل على الظن بأن كثيرا منهـا من نسج الخيال . ومتى كانت القصص من نسج الخيال عيبا فى الآداب القومية ؟ أليست هذه القصص أصل الروايات والمـاسى التى فخر بهـــا شـــعراء الاغريق ، والتى عنى بهـــا الغربيون عدة قرون ، حتى أصبحت عندهم من المثل العليا للأدب، وسنذكر بعد قليل عددا من هذه القصص وضعها عمر بن ابى ربيعة شعرا على نحو لم يسبقه اليه أحد من شعراء العرب .

العناية بالقصص أمر معروف فى آداب الامم كلها وهو ضرورى للحياة الفكرية الكاملة وعنصر من أهم عناصرها . ولم يكن للعرب ان يشذوا عن هذه القاعدة . والذى افسد علينا القصص العربى أن علماء اللغة ونقاد شعر الاحتراف اخذوا هذه القصص مأخذ الجد ، وحسبوها حقائق تاريخية صادقة . وما هى الا ارضـــاء لنزعة الخيال عند العرب ، وكان يجب أن تقدر على هـــذا الاساس .

كان للعرب نوعان من القصص . النوع الأول يتمثل فى ما كانوا يسمونه ايام العرب ، افتخروا فيها بالبطولة والشـــجاعة التى ابدتها كل قبيلة عند محاربتها للقبـــائل الاخرى ، واسرفت كل قبيلة فى هذا الفخر . وكان طبيعيا ان يتخلل هـــذه القصص شعر حماسى يزيد القصة رونقا ، ويضفى عليها من العظمة ما لم تكن تستحقه فى الواقع ، حتى لو كانت وقعت فعلا .

اما النوع الثانى من القصص العربية فيمثلها شعر العذريين، وهو شعر اسرف الناس فى الاعجاب به ، مع أنه كاد يصـــبح بعد فترة وجيزة شعر احتراف من نوع خاص موضوعه الغزل ، ولذلك كثر فيه الكلام المعاد والاخيلة المطروقة كالبكاء عند الفراق وزيارة طيف الحبيبة فى الليل . على كل حال كان القصص العذرى

صورا من الخيال ، وكان حتما ان يتخلله شعر الغـزل . فى هذين النوعين من القصص كان الغرض الأول ذكر الحوادث ، وكان ورود الشعر فيها عرضا ، وان يكن لا غنى عنه فى اظهار هـــذه العواطف على احسن وجه .

اما عمر بن ابى ربيعة ، فهو الذى روى قصصه شـــعرا وهو عمل شق على الكثيرين من قبله ومن بعـــده ، ولا اظن ان الكثيرين اصـابوا مثل نجاحه فى هذا الباب . فنحن حين ندرس شعر عمر نجد انفســـنا ندرس ظاهرة فريدة . والذى اخطأ فيه اللغويون والنقاد هو ما جروا عليه من عدم التفريق بين شعر الاحتراف وشعر الطبع . هذا خطأ كبير ، لان شعر الاحتراف له معايير خاصة يقاس بها جماله ، وهى تخالف معايير الجمال فى شعر الطبع . وفى اغلب الاحيان يكون شعر الاحتراف الجميل غير مقبول عند من يقدرون شعر الطبع ، وكذلك شعر الطبع الجميل لا يروق للبلاغيين (وهم غير البلغـــاء) لخلوه من المحسنات التى كانوا يرون انهـــا ضرورية لجمال شعر الاحتراف . وسنذكر فى ما يلى بعض القصائد التى روى فيها عمر قصصه كاملة .

ولعل عمر وصف نفسه ابلغ وصف حين قال :

إلى امرؤ مولع بالحسن أتبعه لا حظ لى فيه إلا لذة النظر

وهو ما لا يدعيه احد من شعراء الاحتراف .

ومن امثلة قصصه الشعرية قصيدته التى يقول فيها :

تَصابى القلبُ وادّكرا صباهُ ولم يكنْ ظَهَرَا
لزينبَ إذ تجدّ لنا صفاءً لم يكن كَدِرا

أليستْ بالتى قالتْ لولاة لهـا ظهرا
أشيرى بالسلام له إذا هُوَ نَحونَا خَطرا
لقد أرسلتُ جاريتى وقلتُ لها خذى حذرا

وقُولى فى مُلاطفـة لزينبَ نوّلى عمرا
فهزّتْ رأسَها عَجبًا وقالتْ من بلا أمرا
أهذا سحرك النسوان قد خَبَّرننى الخبرا

هذه قصة نظمت شعرا من اول الامر ، وهو فن لا يحسنه الا عمر . والقصة خالية من كل اثر لشعر الاحتراف وليس فيها من عيوبه شيء ، وأحرى بها أن تكون موضـع تقدير المتـادبين المحدثين .

وهناك قصيدة أخرى نورد منهـا ما يدل على اسـلوب عمر فى نظم قصصه شعرا . وهى قصيدة مشهورة خلاصتها أن صاحبته كان لها قريب يتنمر له كلما رآه حول بيتهـا ، فلما كان فى بعض امره ابصرته وأشارت اليه ، وقالت لأختهـا هل هذا هو المغيرى الذى لم انسه حتى الموت . فأجابتها اختها انه هو عمر وان كان قد تغير لونه من اثر السـهر والسير بالليل . فقالت ان كان قد تغير فذلك من اثر بعد كل منـا عن صاحبـه . فلما نظرت اليـه وجدت فيه رجلا لا يتجنب الشمس نهارا ولا البرد ليلا . فهو غير مدلل بل هو كثير السفر فى الصحراء وهذا ما جعله اشعث اغبر ، ثم اخذ يصف عيشتها وانها تسكن منزلا فخما يحيط به بستان اخضر ، وانها فى كنف ولى امرها وانه يتيح لها كل ما ترغب فيه ، ذكر بعد ذلك انه تجشم اليها سفرا طويلا فلما وصل الى منزلها اخذ يترقب حراسها الذين يطوفون بالمنزل حتى اطمأن الى نومهم

ثم ترك دابته فى العراء لا يسترها شيء واخذ يبحث اين يكون خباؤها وكيف يستطيع ان يصدر من هذا الخباء اذا ورده ، ودله على الخبـاء ما يشـعر به المحب حين يقرب منزل حبيبته وعرفه من طيب رائحته . فلما اطفئت انوار الخباء ، وكان القمر غائبا والسمار نوما ، عند ذلك مشى اليها مشية هادئة ساكنـة كمشية الحيات ونفض عن عينيه النعاس فحياها وردت السلام بصوت خافت ، وانبتـه على جراته ، وانه قد يفضـحها بذلك ثم بث لها حبه ، وانه هو الذى دفعه الى هذه المخاطرة ، ولما هدا روعها دعت الله أن يرعاه وقالت له انه هو صاحب الأمر فى كل ما يتعلق بها ، وكانت تنظر اليه نظرة الوامقة . ولمـا كاد الليل ينقضى سمع المنادى يدعو الى الرحيل وطلبت اليه أن يجد مخرجا له من هذا الأمر ، وكان من رأيه أن يبادر القوم ويهرب منهم أو يقوم بينهم قتال . ولم تقبل هى هذا الرأى لانه يفضحهما . واشارت عليه ان يأخذ اختيها معه وهو خارج ، قالت ذلك وهى حزينة قد اصفر وجهها مما تعرضت له . وقامت الأختان ولبستا ثوابهما الحريرية ، وقالتا لاختهما ان الأمر ايسر مما تظن وانهما سيلبسانه ثيابهن ، ويخرج الثلاثة معا فلا يعرفه احـد وهو فى زى النسـاء ويقول فى ذلك انه اتقى اعداءه بثلاث فتيات كاعبات ومعصر ، ويريد بالمعصر نفسه فى زى النساء .

إذا زرتُ نعما لم يزلْ ذو قرابةٍ
لها ، كُلّما لاقيتُه ، يتنمّرُ
أشارتْ بمدراها ، وقالتْ لأُختها
«أهذا المغيرى الذى كانَ يذكر؟»

أهذا الذى أطريت نعتاً ، ولم يكن
وعيشك ، أنساه إلى يوم أقبر ؟
فقالت : «نعم ، لاشكَّ غيَّرَ لونه
مُرَّى الليل يُحيي نصه والتهجر»
«لئن كانَ إياه ، لقد حَال بعدنا
عن العَهْدِ ، والإنسانُ قد يتغير»
رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضتْ
فَيُضْحِي ، وأمّا بالعشى فيخصر
أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت
به فلواتٌ ، فهو أشعث أغبر
وأعجبَها من عيشها ظلُّ غرفة
وريانُ ملتفُّ الحدائق أخضر
ووالٍ كفاها كلّ شيء يهمُّها
فليست لشيء آخرَ الليل تسهر
وليلة ذى دوران جشمنى السرى
وقد يجشم الهول المحب المغرر

فبت رقيباً للرفاق على شفًا
أحاذرُ منهم من يطوف ، وأنظر
إليهمْ متى يستمكنُ النومُ منهم
ولى مجلسٌ ، لولا اللبانةُ ، أوعر
وباتت قلُوصى بالعراء ورحْلها
لطارق ليلٍ ، أولمن جاء ، معور
وبتُّ أُناجى النَّفس : «أين خباؤُها؟
وكيف لما آتى من الأمر مصدر؟ »
فدلَّ عليها القلبُ رَيَّا عرفتُها
لها ، وهوى النفس الذى كاد يظهر
فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطمئنت
مصابيح شبتْ فى العشاء وأذور
وغاب قُمَيْرٌ كنتُ أرجو غيابَه
وروْحَ رعيانٌ ، ونَوْم مُسَمَّر
ونفضت عنى النومَ ، أقبلت مشية ا
حباب ، وركنى ، خشية القومَ ، أزور

فحييتُ إذ فاجأتها ، فتولّهتْ
وكادتْ بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعضّت بالبنان : « فضحتني !
وأنت امرؤٌ ، ميسورُ أمرك أعسرا »

أريتك[1] ، إذ هنّا عليكَ ، ألم تخفْ
وُقيت ، وحولي من عدوِّك حضَّر؟

فو الله ما أدرى أتعجيلُ حاجة
سرتْ بك ، أم قد نامَ من كنت تحذر؟

فقلتُ لها : بل قادني الشوق و الهوى
إليك ، وما عينٌ من الناس تنظر

فقالتْ وقد لانتْ وأفرخَ روعُها
« كلاك بحفظٍ ربك المتكبر ! »

« فأنت ، أبا الخطاب غير مُدافَع
على أميرٌ ، ما مكثت ، مؤمّر

---

(1) أريتك ـ اخبرني ، هنا : هان امرنا عليك .

فبتُّ قريرَ العينِ ، أعطيتُ حاجتى
أقبل فاها ، فى الخلاء ، فأُكثر

فيالك من ليل تقاصرَ طولُه
وما كانَ ليلى قبلَ ذلك يقصرُ

ويالك من ملهىً هناك ومجلسٍ
لنـــا ، لم يُكدِّره علينا مكدِّر

فلما تقضَّى الليلُ إلا أقلَّه
وكادتْ توالى نجمُــه تتغوَّر

أشارتْ «بأن الحىَّ قد حانَ منهم
هبوبٌ ، ولكن موعدٌ لك عزورَ»

فما راعنى إلا منادٍ : «ترحلوا»
وقد لاحَ مفتوقٌ من الصُّبح أشقر

فلما رأتْ من قد تنبه منهم
وأيقاظَهُمْ ، قالت : «أشر كيف تأمر؟»

فقلتُ : «أباديهمْ فإما أفوتهم
وإما ينالُ السيفُ ثأرًا فيثأر»

فقالت : «أتحقيقاً لما قال كاشحٌ
علينا ، وتصديقاً لما كان يؤثر؟»
فإن كان مالابُدَّ منه ، فغيره
من الأمر ، أدنى للخفاء وأستر »
«أقص على أختىَّ بدء حديثنا
وما لى من أن تعلما متأخر »
لعلهما أن تطلبا لك مخرجاً
وأن ترحبَا صدرا بما كنت أحصر »
فقامتْ كئيباً ليس فى وجهها دمٌ
من الحُزن ، تذرى عبرةً تتَحدر
فقامتْ إليها حُرتان عليهما
كساءان من خزٍّ ، دمقس وأخضر
فقالت لأُختيها : «أعينا على فتىً
أتى زائراً ، والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا ، فارتاعتا ، ثم قالتا :
«أقلِّ عليك اللوم ، فالخطبُ أيسر

فقالتْ لها الصغرى : «سأُعطيه مِطْرَفى

وذرعى وهذا البُردَ إن كان يحذر»

يقومُ ، فيمشِى بيننـــا متنكّرًا

فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر

ولا يدعى احد ان هذه القصة الشعرية ــ ومثلها كثير فى ديوان عمر ــ بلغت الذروة فى فن القصص الشعرى . ولكنها على كل حال فتح جديد فى الشعر العربى . ويصح ان يبدأ بها وبمثلها المتذوقون للادب فى عصرنا الحاضر . فهى اقرب الى أذواقنـا وأفهامنا ، وأجدر أن نقدرها من الشعر الفخم الذى يراد منا أن نعجب به وهو شعر الاحتراف ، فلا نجدفيه ما يروقنا ، بل لعلنا نجد فيه ما ينفرنا منه .

نمـاذج من شعـر الطبع

ديــوان الحمــاســة

تحدثنا من امرىء القيس وعن عمر بن أبى ربيعة ، وبينـا أن بعض شعر المعلقة وأكثر شعر عمر يدلنا علىشخصية متكاملة متميزة لكلا الشاعرين ،على أن نخلص اشـعارهما من أكوام القش التى أحاطت بها من أثر البيئة التى عاشا فيها . وكل ما يعنى متذوقى الأدب المحدثين هو هذه الشخصية التى تكون للشاعر ، سواء أكانت هذه الصورة من نسج الخيال أم كانت وقعت فعلا . والذى يعنينا أن تكون الصورة جميلة صادقة لحياة رجلين لكل منهما شخصية واضحة وخصائص نفسية تفرق بينه وبين معاصريه . وقد بينا فى ما اخترناه من شعرهما خصائص شعر الطبع وما يختلف فيه عن شعر الاحتراف .

ونريد أن نبحث الآن فى نوع آخر من شعر الطبع تتمثل فيه حياة البداوة وخصائصها ومشاعر أهلها ، على أن تكون الصور صادقة خالصة من كل تشويه يحدث فيها ما دأب عليه الناس فى ذلك العصر من العناية بشعر الاحتراف وحده . ولا نجد خيرا فى هذا الباب

من ان نعرض على المتأدبين المحدثين ديوان الحماسة لابى تمام ، وفيه مجموعة من المقطوعات قراها الكثير منا فى شبابنا وحفظنا منهـا ما استطعنا ان نحفظه ، على انه من الشـــعر الذى لا غنى عنه لمن يريد أن يلم بيعض الأدب العربى وعلق بأذهاننا ما قاله بعض النقاد القدماء من ان أبا تمام كان فى اختياره لهذه المقطوعات اشعر منه حين ألف قصائده الطوال . ونحن نفهم هذا القول تماما ، لان ابا تمام كان بطلا من أبطال شعر الاحتراف فى اسوا عهوده ، حين كانت العناية تتجه الى المحسنات التى فضـلها البلاغيون . أليس هو القائل عن السيف أن فى حده الحد بين الجد واللعب ، او ليس هو القائل عن السيوف بيض الصفائح لا سود الصحائف ، وهو قول لا يعجب به أحد من المحدثين . فكيف استطاع ابو تمام صاحب مثل هذا الشعر أن يختار مقطوعات تختلف عن شعره تمام الاختلاف . أيكون هذا نوعا من الثورة على نفسه لخضوعه للذوق السائد فى عصره ؟ ولعل هذا يدلنا على انه لو ترك على سجيته لفضل شعر الطبع على شعر الاحتراف .

تبدأ مقطوعات ديوان الحماسة بقصة شاعر أغار على ابله قوم غرباء فاستباحوها . فلما استنصر قومه لم ينصروه على كثرة عددهم ، ونراه يعيرهم انهم ليسوا من الذين يردون الشر بالشر ، وختم مقطوعته ببيت مشهور جرى مجرى الامثال . واليك القصيدة :

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستَبِحْ إبلى
بنو اللَّقيطةِ من ذُهلِ بن شيبانـا
إذًا لقامَ بنصرى معشرٌ خشنٌ
عند الحفيظةِ إن ذو لوثة لانا

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذَيه لهم
طاروا إليه زرافاتٍ ووحـــدانا

لا يسألون أخاهُمْ حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

لكنْ قومي وإن كانوا ذوي عـــدد
ليْسُوا من الشَّرِّ في شيء وإن هانا

يَجزون من ظُلم أهل الظُلم مغفرةً
ومن إساءةِ أهل السوء إحسانا

كأن ربكَ لم يخلقْ لخشيتهِ
سِواهُمُ من جميعِ الناس إنسانــا

على ذلك مقطوعة تحكي قصـــة قبيلتين متجاورتين ، وكانت احداهما تسيء الى قبيلة الشاعر فنراه يقول لهم أنهم اخوان وانهم سيصفحون عن اساءتهم اذا كفوا عن العدوان ، فيعود بينهما الصفاء ولكن جيرانهم استمروا في التحرش بهم ، واصبحت عداوتهم ظاهرة للعيان . والشاعر يقول لهم ليس لنا الا ان نقاتلهم ونطعنكم طعنات تسيل منها دماؤكم كما يسيل الماء من القربة المملوءة . وختم قوله بأن الحلم عند الشر ذلة ، وان الشر قد ينجي الانسان حين لا ينجيه الصـــفح :

صَفحنا عن بنى ذُهلٍ وقُلنا القَومُ إخوانُ
عسَى الأيامُ أن يرجعن قوماً كالذى كانوا
فلما صرَّح الشرُّ فأمْسَى وهْوَ عريان
مَشَينا مِشيةَ الليث غدا والليثُ غَضبان
بضرب فيه توهين وتَخضيعٌ واقران
وطعنٍ كفم الزِّقِّ غَدا والزقُّ ملآن
وبعضُ الحلم عند الجهل للذلَّةِ إذعان
وفى الشر نجاةٌ حين لاينجيك إحسان

وهناك مقطوعة اخرى يذكر فيها الشاعر ان قوما أغاروا عليهم وخيروهم بين القتال وبين ذلة الاسر واختار قوم الشاعر القتال فيموت من يموت ويحيا من يحيا عزيزا ، وفيها عبارتان مألوفتان عند ذكر القتال فى البادية : أن الفوارس يأبون الظلم ولا يخشون الموت ، ثم ان تصيب أعدائهم من الرماح صدورها ، ولهم مقابضها .

فقالوا لنا ثِنْتان لابدَّ منهما صدور رماح أشرعت أوسلاسل
فقلنا لهم تلكم إذن بعد كرَّة تُغادر صَرْعَى نووهَا متخاذل
ولم تَدْر إن جضْنامن الموت جيضةً كم العمر باق والمدى متطاول
لهم صدر سيفى يوم بطحاء سحبل ولى منه ما ضمتْ عليه الأنامل

هذه صور ثلاث للحياة في البــادية ، اغارة على ابل تستباح ، وجيران يتقاتلون بعد ان يحاولوا الصفح والعفو ، وقوم يغيرون على غيرهم يهددونهم بالأسر او القتال .

وفي الحماسة مقطوعات كثيرة عن الفوارس وكانوا موضع احترام البدو . فمن وصفهم للفارس قول القائل :

فدتْ نفسي وما ملكت يميني   فوارسُ صدّقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايـــا   إذا دارتْ رحى الحرب الزبون
ولا يجزونَ من حسن بسيء   ولا يجزون من غِلَظ بلين
فنكّب عنهم دَرْء الأعادي   وداووا بالجنون من الجنون

وكانوا يستحبون من الفارس ان يكون سريعا كان به جنونا ، وان يقبل على اعدائه فيسيل دمه على سرجه من ذلك قول القائل :

لا يركنَنْ أحدٌ إلى الإحجام   يومَ الوغى متخوفاً لحِمَام
فلقد أراني للرماح دريئة   منْ عن يميني مرةً وأمامي
حتى خضبتُ بما تحدّر من دمي   أكناف سَرجي أو عنان لجامي

ومن اجمل الصور للقتـــال بين فارســين جريئين ما جاء في المقطوعة الآتية :

وفارس في غمار الموت منغمس   إذا تألّى على مكروهة صدقا
غشيتُه وهو في جأواء باسلة   عضباً أصاب سواء الرأس فانفلقا
بضربة لم تكنْ مني مخالسةً   ولا تعجّلتها جبنا ولا فرقا

هذه صورة صادقة لفارس منغمس فى غمار الموت ، يجول فى المعارك كما يشاء وحوله رجاله مدججين بالسلاح ، فلما التقى بالشاعر مواجهة ضربه هذا فوق رأسه بالسيف فانفلق ، ثم يزيد على ذلك أن هذه الضربة لم يقدم عليها خلسة ولم يتعجلها خائفا وانما ضربه بها مطمئنا ثابتا . والمقارنة بين فارس سريع جرىء وبين فارس ثابت مقارنة جميلة واحسبها صادقة .

على أن الفرسان فى الحماسة لم يكونوا جميعا من هذا الطراز ، من ذلك قول القائل :

اللهُ يعلمُ ما تركتُ قتالَهُمْ حتى عَلَوا فرسى بأشْقرَ مزبدِ

وشَممتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم فى مأزقٍ والخيلُ لم تتبددِ

وعلمت أنى إن أُقاتلْ واحدًا أُقتلْ ولا يضرر عدوى مشهدى

فصددت عنهم والأحبةُ فيهم طمعاً لهم بعقابِ يوم مرصدِ

يعترف هذا الشاعر بخوفه من القتل ويبرر هروبه من القتال مع وجود أحبته عند الاعداء لانه يرجو ان يثار لهم فى يوم من الايام .

وشاعر آخر موقفه شر من هذا . جمع بين كتيبتين وجعلهم يشتبكون ، حتى اذا اشتد القتال تركهم لينجو بنفسه وهو يقول فى ذلك أنه لن ينفعه أن يقول النساء فيه خيرا بعد أن يقتل دون رجالهن :

وكتيبة لبَّستها بكتيبة حتى إذا التبستْ نفضتُ لها يدى

ما كان ينفعُنى مقال نسائهم وقتلتُ دون رجالهم لا تَبْعد

من صدق شعراء الطبع أن يعترفوا بجبنهم . كان حسان بن ثابت معروفا بذلك حتى هزأ به النساء حين أردن منه أن يسلب قتيلا وكن على ذلك قادرات لولا ما فى هذا من عيب .

ومثل ذلك قول الشاعر :

ولقد أجمع رجلى بها حَذَرَ الموت وإنى لمغرور
ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هرير

ونعود الى شجاعة الشجعان ولانجد أبلغ فى ذلك من القول المشهور لقطرى بن الفجاءة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شَعَاعًا من الأبطالِ ويحَكِ لا تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرًا فى مجال الموت صبرًا فما نَيْلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عزٍّ فيطوى عن أخى الخَنَع اليراع
سبيلُ الموت غايةُ كل حى فداعيه لأهل الأرض داعى
من لايعتبطْ يسأمْ ويهرم وتسلمه المنونُ إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ فى حيـاة إذا ما عُدَّ من سَقَط المتاع

وليس هذا تفاخرا اجوف ، ولا شجاعة زائفة ، وانما هو قول رجل مقدم على الموت يحاول صادقا ان يقنع نفسه ان الموت خير من عيش الذلة ما دام الاجل محدودا .

وهذا عند من يعجبهم شعر الطبع خير الف مرة من قول شاعر الاحتراف وان يكن (بشار بن برد) حيث يقول :

إذا ما غضبنا غضبة مضريّةً
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دَما

وهناك مقطوعة اخرى يروى فيها الشاعر قصة قوم اغاروا على داره فهدموها غدرا وعدوانا ، ولكنهم نسوا انها تراث رجل كريم لا يخشى العواقب ، وانه اذا عزم أمرا فلا يقعده عن ذلك ما يجره عليه من عواقب . وفيه وصف لما يحدثه الغدر والعدوان فى نفس رجل كريم يأبى ان يخضع لاعتداء المعتدين ويقول فى ذلك :

سأغسل عنى العارَ بالسيفِ جالبًا
على قضاءُ اللهِ ماكان جالبـــا
فإن تَهْدِمُوا بالغَدرِ دارى فإنها
تراثُ كريمٍ لا يخافُ العواقبا
إذا همَّ لم تردعْ عزيمة همِّه
ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
إذا همّ ألقى بين عينِه عَزْمَه
ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يَسْتشِرْ فى رأيِه غير نفْسِه
ولم يرضَ إلا قائم السيفِ صاحبا

ليس هذا فخرا اجوف كالذى نراه فى شعر الاحتراف كقول بشار:

إذا ما أعرنا سيِّدًا من قبيلة ذُرى مِنْبر صلّى علينا وسلّما

وقليلا ما نجد فى شعر الحماسة مدحا للجواد على جوده ، لأن ذلك لا يتفق مع شعر الطبع ، ومنه قول القائل :

وإلى لهد من ثَنائى فقاصدٌ   به لابن عمٍّ الصدق سمس بن مالك

أهزُّ به فى . نَدْوة الحى عِطْفَه

كما هزَّ عطفى بالهجَان الأوارك

ثم يصفه بعد ذلك بالشجاعة والمخاطرة فيصبح فى مفازة صعبة ويمسى فى غيرها ، ويقول فى ذلك :

قَليلُ التشكِّى للمهمِّ يُصيبه   كثيرُ الهوى شتَّى النوى والمسالك

يَظلُّ بموْماةٍ ويُمسى بغيرِهَا   جحيشاً ويَعْرَورِى ظهورَ المهالكِ

ومن عجيب ما جاء فى الحماسة مقطوعة يقول فيها الشاعر أن زوجته تلومه على اعطاء حصانه (وكان اسمه الورد) لبن ناقتهم ، ويقول فى ذلك أنه عند الكرب وعند الفزع لا تستوى امرأته وحصانه فزوجته تأتيه فزعة شعرها اشعث ، حاسرة عن قناعها ، أما حصانه فيذهب به الى حيث يكون القتال وهناك يجزيه بما قدم له من طعام :

أرى أمَّ سهل ماتزال تفجع   تلومُ وما أدرى علامَ توجع

تلوم على أمنح الورد لقحة   وما تستوى والورد ساعة تَفزَعُ

إذا هى قامت حاسرًا مشمعلةً   نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع

وقمت إليه باللجام ميسرًا   هنالك يجزينى بما كنتُ أصنع

ومن عادة كرام العرب التى تظهر فى شعرهم تفضيلهم الاخذ بالثار على قبول الدية :

فلو أن حيًّا يقبل المال فديــةً
لسقنا لهُمْ سيلا من المالِ مُفعما
ولكن أبى قوم أصيب أخوهم
رِضَا العار فاختاروا على اللَّبَنِ الدَّمَا

ويفخر العرب ان دماءهم فى القتال تسيل على الاقدام ولا تسيل على اعقابهم . يريدون بذلك انهم يتقدمون الى الامام دائما ، ولا يفرون وفى ذلك يقول القائل :

تأخَرتُ أستبقى الحياةَ فلم أجد
لنفسى حياةً مثلَ أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومُنا
ولكن على أقدامِنا تقطرُ الدِّمـــا
نفلق هاما من رجَال أعزة
علينا وَهُمْ كانوا أعقَّ وأظلمـــا

هذه صور مختلفة للحياة بين البدو ووصف جميل لفضائلهم البدائيه . وفيها كل صفات شعر الطبع . ومن خير ما فعله ابو تمام انه تجنب القصائد الطوال ولم يرغمنا على احتمال ما لا يحتمل من ذكر الأطلال والتشبيب بالنساء ووصف اعجازهن وضمور كشحهن .

يقول احد شعراء الحماسة انه سجن فى مكة ولكن قلبــه ظل يسير مع الركب اليمانى الذى فيه حبيبته . ولما زارته بالليل اكد لها

انه لا يخاف الموت وان به فى السجن من الصبابة ما كان به حين كان طليقا :

هَوَاى مع الركب اليمانين مُصعدٌ
جنيبٌ وجثمانى بمكة موثق
عجبت لمرآها وأنى تخلصتْ
إلى وبابُ السجن دونى مغلق
ألمّت فحيّت ثم قامت فودّعت
فلما تولّت كادت النفسُ تَزهق
فلا تحسبى أنى تَخَشْعتُ بعدكم
بشىء ، ولا أنى من الموت أفرق
ولا أنَّ نفسى يزدهيها وعيدهم
ولا أنّنى بالمشى فى القيد أخرق
ولكن عرتنى من هواك صبابةٌ
كما كنْت ألقى منك إذ أنا مطلق

أليس هذا خيرا من قول جرير :

إن العُيون التى فى طرفها حورٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانـــا

ومن المألوف ان يقول الشاعر انه يذكر حبيبته والسيوف تعتوره :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا
وقد نهلتْ منا المثقفةُ السُّمرُ .

فوالله ما أدرى وإنى لصادقٌ
أداءٌ عرانى من حبابك أم سِحْر

فإن كان سِحْرًا فاعذريني على الهوى
وإن كان داءٌ غيره فَلَك العذر

وفي الحماسة ذكر لبعض المعتقدات البدائية . فكان منهم من يقول ان ابنه يكون شجاعا نجيبا اذا حملت به أمه غصبا وهي كارهة .
ومن غريب القول ان احد الابطـــال دعا على نفسه ان يكون بخيلا وان ينحرف عن العلا وان يلقى اضيافه عوسا اذا لم يقاتل ابن حرب . وهذا قول عجيب يدل على انه كان يرى القتال احب اليه من ان يلحقه عار البخل او سبته مقابلة الضيوف وهو عابث .

بقيت وفرى وانحرفت عن العُلا
ولقيت أضيافى بوجهٍ عبوس

إن لم أشن على ابن حرب غارةً
لم تخلُ يوماً من نِهاب نفوس

ومن المواقف التي يحار فيها صـــاحب الثار ما جاء في قول الشـــاعر :

قَومى هُمو قَتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوتُ لأعفونْ جللاً ولئن سطوتُ لأوهنن عظمى

ولم يكن كل شعر البادية فخرا وقتالا بل كان فى بعضه ما يدل على التواضع ، وان كان اصله الكبرياء حيث يقول الشاعر :

ولم أر قوماً مثلنا خير قومهم أقلَّ به منا على قومهم فخرا

وما تزوهينا الكبرياءُ عليهم إذا كلَّمونا أن نُكلمهم نزرا

ونحن بنو ماء السماء فلانرى لأنفسنا من دون مملكة قصرا

ومن الاباء ما ذكره الشاعر حيث يقول :

لا أشتهى يا قومُ إلا كارهًا باب الأمير ولا دفاع الحاجب

ويقول الاخر :

ذهبتُم وللتم بالأميرْ وقلتُم تركنا أحاديثاً ولحناموضّعا

فما زادنى إلا سناءً ورفعة ومازادكم فى الناس إلا تخصعا

ولا اريد ان اترك ديوان الحماسة دون ان اشـير الى قصيدتين شهيرتين وردتا فيـه ، الأولى قول المنخل اليشـكرى ، والثانية منسوبة الى تابط شرا .

يقول المنخل :

ولقدْ دخلتُ على الفتاة الخد ر فى اليوم المطـير

الكاعب الحسناء تر فلُّ فى الدمقس وفى الحرير

فلفعتهـا فتـدافعت مشى القطاة إلى الغدير

فإذا صحوتُ فإنـنى رب الشويهة والبعـير

وإذا انتشيت فإنـنى رب الخورنق والسدير

والقصيدة مشهورة جميلة يرجع جمالهـــا الى أن موسيقاها سريعة خفيفة مرحة ، توافق روح الشـــاعر الماجن المستهتر الذى يســـتوى عنده أن يكون رب الشـــويهة والبعير ، أو رب الخورنق والسدير ، وهما من كبار القصور الفاخرة ، ولا أشك أنه شاهدهما وانه قال هذه القصيدة وهو رب الخورنق والسدير ، ولو أراد احد الممثلين البارعين أن يلقى هذه القصيدة لكان أداؤها كما يؤديهـــا من اسرف فى الشراب . وانتهى به المجون الى القول صراحة أنه يحبها وتحبه ويحب ناقتها بعيره ، وفيه تحديد للمعنى المراد بلغ به غاية الاستهتـــار .

وأحبها وتحبـــنى ويحب ناقتهابعيرى

اما القصيدة الثانية فهى منسوبة الى تأبط شرا ، ولها حكاية طويلة ترجع الى ان (جوته) ترجمها الى الالمانية وعلق عليها بعد ان غير ترتيب بعض أبياتها .

وقد دار جدل كثير حول ترجمة (جوته) لهذه القصيدة ، وقد اسرف العلماء المحدثون فى تقديرهم لهذه الترجمة . وما زلت أعتقد ان هـــذه القصـــيدة من أجمل ما عرفه الأدب العربى ، وذلك من جهتين : الجهة الانســـانية . فهى من أصدق شـــعر الطبع ومن خير الامثلة عليه . اما الناحية الفنيـــة فقد لا يقدرها الا العربى الذى يتذوق جمال موسيقاها وحسن اخيلتها .

ولا يعجبنى كثيرا اسراف بعض الادباء المحدثين فى تقدير اختيار شاعر مثل (جوته) لهذه القصيدة ، حتى حسبوا أن هذا الاختيار مفخرة للأدب العربى . والواقع أن جوته كان رجلا طلعـــة يريد أن يعرف كل شىء يعرض له . وله دراســـة لا بأس بها فى التشريح وصف فيها عظمـــة صـــغيرة فى الحمجمة فوق الثنايا . وله محاولة فى تصنيف النباتات . وحين قامت ثورة سنة ١٨٣٠ فى فرنسا ســـأل

(جوته) صديقة (اكرمان) عن أهم الاخبار الواردة من فرنسا . وظن (اكرمان) انه يسأل عن أخبار الثورة . ولكن (جوته) قال له انه انما يسأل عما دار فى المجمع العلمى الفرنسى بين عالمين من علماء البيولوجيا (كوفييه وسانت هيلير) من مناقشة بيولوجية بحتة . ولا يدل ذلك الا على رغبة الغربيين فى الاستطلاع وفى معرفة جميع الثقافات فى شتى بلاد العالم . ولا شك أن (جوته) استوحى من الشرق ومن الادب العربى بعض الصور والاخيلة التى أوردها فى شعره . كما استوحى مثل هذه الصور من ثقافات اخرى عديدة . وقد يكون من الصعب أن تعرف الأسباب النفسية التى جعلت (جوته) يتأثر هذا التأثر الواضح بالآداب الشرقية . فقد لا يستطيع ذلك الا عالم المانى متخصص فى (جوته) .

ولا نزاع أن (جوته) تأثر بالناحية الانسانية وحدها ، والواقع ان كبار الشعراء العرب لا يمكن لنا ان نجعل شعرهم عالميا ، يعجب غير العرب ، لان أكثره شعر احتراف . يتعلق جماله بألفاظه وصياغته .

والقصيدة تحتاج الى شرح وسابدا بشرح ابياتها واحدا واحدا .

١ ـ فى مكان ما يوجد قتيل دمه لن يضيع هدرا .

٢ ـ أن هذا القتيل خلف عبء الثأر على الشاعر وهو قادر على تحمل هذا العبء .

٣ ـ والقتيل خال الشاعر الذى يرى نفسه قوى الشكيمة صعب المراس .

٤ ـ وأنه يطرق كما تطرق الحية وهى تنفث السم وسمها من اخبث الافاعى .

٥ ــ ويتحدث من هذا الخبر أنه جاءه وكان شديد الوقع عليه وهو خبر عظيم يصغر ازاءه أجل الاخبار .

٦ ــ سلبنى الدهر رجلا أبيا لا يذل جاره .

٧ ــ وان هذا القتيل كان كالشمس فى دفء المقرور ، اما حين يشتد الحر فهو برد وظل على من يلوذ به .

٨ ــ وكان القتيل هزيل الجسم فى غير بؤس ، جوادا شهما .

٩ ــ وهو اذا سافر اظهر الحزم ، واذا حل فى مكان فالحزم يلازمه .

١٠ ــ فاذا جاد على الناس كان كغيث السحاب ، اما اذا حارب فانه يصير كالليث الهصور .

واليك القصيدة :

١ ــ إن بالشعب الذى دون سلع
لقتيلا دمه ما يطل

٢ ــ خلّف العبء علىّ وولّى
أنا بالعبء له مستقل

٣ ــ ووراء الثأر منى ابن أخت
مصع عقلته ما تحل

٤ ــ مطرق يرشح سمّا كما أطرق أفعى ينفث السم صلّ

٥ ــ شجر ما نابنا مصمئل
جلّ حتى دقّ فيه الأجل

٦ - بزّني الدهر وكان غشوماً
بأبي جاره ما يذل

٧ - شامس في القر حتى إذا ما
ذكت الشعرى فبرد وظل

٨ - يابس الجنبين من غير بؤس
ونديّ الكفين شهم مدل

٩ - ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما
حل حل الحزم حيث يحل

١٠- غيثُ مزن غامر حيث يجدى
وإذا يسطو فليث أبسل

ولا نزاع أن هذه القصيدة من وجهة نظر العواطف الانسانية جميلة صادقة ، وصف فيها الشاعر خاله القتيل بكل الفضائل البدوية الشهيرة . كان يحمي الجار ويغيث من يلوذ به في الحر والبرد وعند الحاجة . ولكنه كان كذلك ليثا أغلب عندما يسطو على أعدائه . ووصف الشاعر نفسه بأنه لن يهدر دم خاله ، وانه على ذلك قادر ، فهو كالحية تنفث سمها فلا ينجو منها عدو .

وليس من الصعب أن نجعل هذه العواطف شعرا انسانيا عالميا وهو مالا نستطيع ان نعمله حتى بأرقى شعر الاحتراف من مثل قول المتنبي :

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جَفَنِ الردى وهو نائم

ولكن هناك الناحية الفنية التى يدركهـا العربى الذى يتذوق موسيقى هذا الشعر ، فالحركة فيها حركة خاصـة جدا ، أكثرها سريع وبعضها بطىء كأنها حركة الخيل فى الكر والفر فى حومة الوغى عند التقاء الفرسان ، وفيهـا تعبير موسيقى عن نفس الشـاعر الجياشة بالثأر والمتعطشة اليه . وسنعود الى ذلك تفصـيلا عند الحديث عن الموسيقى فى الشعر العربى .

* * *

من الواضح أن فى الأدب العربى كثيرا من شعر الطبع، وسنعطى منه أمثلة قليلة لأن استقصاء هذا الباب يطول بنا جدا .

من ذلك قول الشاعر :

أفاطم قد زُوجت عيسى فأيقنى

بذلٍّ لديه عاجلٍ غير آجل

فإنك قد زوجت عن غير خبرةٍ

فتى من بنى العباس ليس بعاقل

فإن قلت من رهط النبى فإنه

وإن كان حر الأصل عبد الشمائل

هذا كلام بسيط ليس فيه تكلف ولا محسنات ، ولكن فيه حرارة العطف على فاطمة والحرص على مستقبلها . وهو يحذرها ممن ستتزوجه لانه وان كان من بنى العباس الا ان شمائله شمائل العبيد .

ومن شعر الطبع ايضا قول القائل :

تضوّع مسكاً بطن نعمان أن مشتْ
به زينبٌ فى نسوةٍ خفرات
فلما رأتْ ركب النميرىّ أعرضت
وكن من ان يلقينه حَذرات
يخبّئن أطرافَ البنان من التقى
ويخرُجْنَ نصف الليل مختمرات

قصة صغيرة صادقة ، ولا اشك انها وقعت له فعلا .

وليس من عادة شعر المديح أن يكون فيه امثلة من شعر الطبع الا انى ارى كثيرا من الصدق فى قول القائل :

رأيت عرابة الأوسىّ يسمُو إلى العلياء منقطع القرين
إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجد تلقّاها عرابةُ باليمين

ثم يخاطب ناقته فيقول :

إذا بلّغتنى وحملتُ رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

وقد أجمع النقـــاد على استهجان البيت الأخير ، فكيف أباح لنفسه أن يذبح ناقة بلغت به أقصى أمانيـــه . ولكني أرى في هـــذا البيت صدق عاطفته واضحــا ، فهو يريد أن يقول أنه لن يكون في حاجة الى ناقة يسافر عليها لأنه سيظل عنـــد عرابة طول حيـــاته لا يبغي عنه بديلا .

ومن شعر الطبع قول القائل :

ولقد لزمتُ الحيّ أتبع ظلهم حتى دفعتُ إلى ربيبة هودج

قالت بحق أبي وأكبر إخوتي لأنبهنْ الحي إن لم تخرج

فخرجتُ خيفة قولها فتبسمت فعلمتُ أن يمينها لم تحرج

فلثمت فاها آخذًا بفؤادها فعْلَ النزيف ببرد ماء الحشرج

أين من هذا تشبيب شعراء الاحتراف بالنساء .

يتبين لنا من هذه الأمثلة أن شـــعر الطبع في الأدب العربي له صفات خاصة . فهو في الاغلب مقطوعات قصيرة ، لأن القصائد الطوال تجر الشاعر الى شكل القصيدة ، وهذا أبعـــد ما يكون عن الطبع . ومن خصائص شعر الطبع انه خال تماما من الوان البلاغة المفتعـلة التي حرص عليها شعراء الاحتراف . ومن شعراء الاحتراف من في بعض أقواله شـــعر جميل كشعر الطبـــع كما في قصيدة المتنبي الجميلة :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعَنَاهُمْ من شأنه ما عَنَانا

ولا أريد أن اتحدث هنا عن شعر شوقى والأدوار التى مر بهـا فى حياته الشعرية . ولكنى اذكر ان من خير شعر الطبع قوله :

خدعوها بقولهم حسناءُ والغوانى يغرهن الثّناءُ

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعد فلقاءُ

هذا وصف جميل لما يكون قد حدث له فى حديقة (لوكسمبرج) فى باريس عندما كان طالبا . ثم مر شـــعر شوقى بعد ذلك بتطور واضح أصله ما أراد من اتمام النقص الذى رآه فى الشـــعر العربى القديم . فكتب تاريخ مصر شعرا ، ثم الف التمثيليات الشـــعرية المعروفة ، واصاب قدرا غير قليل من النجـاح فى هذه المحاولات . واعرف كثيرا من الادباء يعجبهم قول شوقى :

رِيمٌ على القاعِ بين البانِ و العَلَمِ أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

مع أن هذا من صميم شعر الاحتراف . الشطر الاول فيه اربع كلمات ترد كثيرا فى الشعر العربى ، ولها رنين جميل . ولكن شوقى وضعها جنبا الى جنب دون ان يقدر ان هذا الشطر لا يعطينا صورة واضحة عن الريم او القاع او البان او العلم ، وهذه من اظهر صفات شـــعر الاحـــتراف .

* * *

لا احسب ان هناك أدبا من الاداب القديمة عند الامم المختلفـة يخلو من الاشادة والتغنى بالبطولات الفردية وهى بطولة القتـــال والقتل . فعل ذلك شعراء اليونان فى وصفهم القتال الذى دار حول

أسوار (طروادة) . وللعرب كذلك شـــعر كثير فى مدح هذا الصنف من البطولة . ولكنه ظل مقطوعات صغيرة كالتى رأينـــاها فى ديوان الحماسة . أما القصص الطويلة فقد بقيت شعبية عامية ولم يشـــأ الأدب العربى الرفيع أن يتناول هذا القصص . فلما افتقـــدناه فى الأدب العالى ، وهو مما يؤسف له ، اضطررنا الى اغفـــال أكثره ، وكان ذلك من اثر طغيان اللغة وغريبها وشدة العنـــاية بما وضعه البلاغيون من قواعد ، فكان أن ساد شـــعر الاحتراف وأصبح هو وحده الشعر المقبول عند الخاصة ، وصار كل ما عداه قولا تافهـــا لا يعنى به الا عامة الناس .

شعر الاحتراف

غلب شعر الاحتراف على الشعر العربى حتى كاد يستغرقه كله ، وغلب أدب الاحتراف على الادب العربى حتى شمله كله تقريبا . طغت اللغة على الشعر والادب حتى أصبح العلم بها غاية ترجى لذاتها، ولا يروق هذا للمتادبين المحدثين ، ولا يروى عطشهم الى السمو باحساسهم ، ولا يشبع رغبتهم فى الخيال الجميل ، ولا يصف لهم متعة الحياة ولا يحل المشاكل النفسية والخلقية التى تعترض حياتهم . ونحن نرى اكثرهم انصرفوا الى الآداب الاجنبية يجدون فيها ما يفتقدونه فى ادبهم القومى . والانسان لا يفهم الشعر الاجنبى الا فهما عقليا او نفسيا ، ولكنه لا يستطيع ان يعرف بالضبط مقاييس الجمال الحسى الذى يعرفه اهل ذلك الشعر . والجهل بالشعر القومى ينقص من قدر ثقافة المتعلمين ، ويذهب بكثير من روائها . هذا عيب كبير قد لا يدركه جمهور المتعلمين ، ولكن الجهل بالشعر القومى يؤثر تاثيرا سيئا فى التكوين الكامل لشخصية الذين يحرصون على ان تكون لهم ثقافة عالية . ومن الخطر على الامة ان يجهل المثقفون فيها شعر امتهم ، بل شر من ذلك الا يعباوا به ، وان يسخروا منه . وهذا ما نعلمه عن كثير منهم . وليس لنا

ان نسكت على هذه الحال ، لأن ثقافتنا حينذاك تكون مبنية على الرمل ، او مستعارة لا جذور لها فى نفوسنا .

فهل من سبيل الى عرض شعر الاحتراف على المثقفين المحدثين عرضا يقربه الى حد ما من ادواقهم ؟

اذا اردنا أن نجد هذه السبيل فعلينا أن ندرس وظيفة الشعر فى المجتمع العربى ، وكيف كانوا لا يعدون من الفحول الا شعراء الاحتراف ، وكيف اصبح شعراء الطبع فى المحل الثانى ، لا يعبأ بهم احد . وظلت القصيدة فى شعر الاحتراف على شكلها قرونا عديدة ، بالرغم مما ادى اليه ذلك من ابتذال . ثم كيف كانت موضوعاته ضيقة محدودة . وكيف اجمع الناس والنقاد على الاعجاب بشعر الاحتراف ، وكيف كانوا يفاضلون بين الشعراء ، وكيف كانت معايير الجمال عندهم . ثم ندرس بعد ذلك العقبات التى يتعثر فيها المتذوقون المحدثون حين يريدون ان يلموا به ، ثم ندرس بعد ذلك اثر علوم البلاغة والمحسنات اللفظية فيه ، وليس من الاسراف أن نقول ان علوم البلاغة كانت نكبة على الشعر العربى بل على الادب العربى كله تزيد فداحة عن نكبة اللغة فى الفية ابن مالك .

ليس عجيبا ان يعنى العرب بلغتهم تلك العناية الفائقة ، اذ هى فنهم الوحيد . والعرب تعجبهم الكلمة الذكية والجواب المفحم والعبارات المنمقة ويعدون من البلاغة ان تقول فى ثلاث عبارات ما يمكن أن يقال فى عبارة واحدة ، واعجابهم بالحكم والمواعظ من اثر هذا الاعجاب بالعبارات الذكية . وكتب الادب الشهيرة كالعقد الفريد ونهاية الأرب مملوءة بالكثير من هذه الحكم ، والحكم من ابسط انواع الادب . ثم جاء الشراح فزادوا الطين بلة حيث ارادوا أن يشرحوا مفردات اللغة وعنوا بغريبها ، ظنا منهم ان هذا غاية العلم وفى تآليفهم عيب لا يقبله الذوق الحديث ، فهم يتناولون مسائل

النحو والصرف والاعراب ، معرضين عما يكون فى الشعر من خيال جيد ، ثم يستطردون من ذلك الى ذكر النكت البلاغية والمحسنات التى لا بد من العلم بها اذا أراد الشاعر او الكاتب أن يكون موضع الاعجاب . والقارىء المحدث لا يطيق مثل هذا التأليف ولا يستسيغ الاستطراد من علم الى علم ، ولهذا كان كتاب جيد كالكامل والمبرد صعبا لا يستطيع الصبر عليه الا المتخصصون .

واذا اردنا أن نفهم شعر الاحتراف على نحو ما فيجب أن نقدر وظيفة الشعر فى المجتمع العربى ، ولنبحث فى حقيقة ما كان يحدث فى سوق عكاظ قبل الاسلام ، وما كان يحدث فى المربد بالبصرة فى عصر الاسلام . كانت عكاظ سوقا تجارية ، وكانت الندوات الأدبية فيها مجالا للسمر والشراب والفخر والمديح . ومثل هذه الندوات معروفة حتى فى العصور الحديثة ، شهدنا مثلها فى لبنان ، سوى ان الرجل فى العصور الحديثة حل محل الشعر الفصيح فى الاسواق القديمة . كان الشاعر يفخر بقبيلته فيطرب قومه لهذا الفخر ويرتفع بذلك قدره عندهم . وكانوا يمدحون فيطرب الممدوح ، وهم فى ذلك لا يخرجون على امرين الكرم والشجاعة وهما من الفضائل البدائية . وكانوا يعكفون أحيانا على الهجاء فيثيرون فى الحاضرين الضحك لمثل هذا الهزل . والناس لا ينظرون فى كل ذلك الا الى صنعة الشعر ، وكان كل ما يرجى من الشاعر ان يكون صائغا ماهرا ، يتناول القطعة المبهمة من الذهب او الفضة فيجعل منها حلية جميلة يزين بها الممدوح صدره ، ولعل جودة الشعر لم تكن لتعنى الممدوحين ، الا من حيث هى وسيلة لذيوع فضائلهم ، وكان غرضهم أن يكون شعر المديح فيهم مما يسير فى الآفاق ويتحدث به الركبان . ولعل اكثر اعجابهم كان بهذه الصفة التى تكون فى الشعر المشهور . وبعضهم لم يكونوا يعباون بجمال الشعر من حيث هو فن جميل . وليس لنا الا ان نعجب بشعراء الاحتراف الذين استطاعوا ان يؤلفوا دواوين ضخمة تدور كلها

حول صفتين اثنتين الكرم والشجاعة ، وكانوا يعدون هذا افتئاتا في لقول ، ولا أظن احدا يعجب بمثل هذه الصنعة في ايامنا هذه لان هذه الموضوعات بطبيعتها ضيقة محدودة ، ومهما تختلف صور التعبير عنها فهي تؤدى حتما الى شعر مبتذل مسئوم . ولم يكن في السامعين أو الممدوحين او النقاد من يعنيه أن يشرح الشاعر عواطفه أو أن يحلل أزماته النفسية ، ولو فعل أحدهم ذلك لزهد الناس في شعره وأعرضوا عنه . ولم يخطر ببال أحد أن يكون الشعر « عواطف متأججة يذكرها الشاعر بعد هدوء نفسه » وهو وصف الشاعر الانجليزي (وردزورث) لطبيعة الشعر . اذا قدرنا ذلك فقد نستطيع أن نقبل من شعر الاحتراف ما لا نقبله اذا حسبناه تعبيرا صادقا جميلا عن شعور حقيقي . وقد قال بعض النقاد القدماء ان المعاني معروفة مشهورة ، وان التفاضل بين الشعراء لايكون الا في الصياغة . هذا الوصف لا يصلح الا على شعر الاحتراف حيث المعاني مطروقة والصياغة هي كل شيء ، ولا يصدق على شعر الطبع .

هذا من ناحية الموضوعات ، أما من ناحية الشكل فقد حافظت القصيدة العربية على شكلها قرونا طويلة ، تبدأ بالمألوف من القول كالبكاء على الأطلال أو التشبيب بالنساء أو ذكر الشباب والشيب . وسموا ذلك التمسك بعمود الشعر ، أما ما عدا ذلك فلم يكن خليقا أن يعد شعرا . وقد بينا ان ذلك كله لا يتفق وشعر الطبع . بل هو من شعر الاحتراف . ولم يكن لذكر الأطلال معنى بعد ان ذاع الشعر بين أهل الحضر . وأما التشبيب بالنساء فلم يكن من الحب في شيء ، بل كان مقصورا على وصفهم اعجاز النساء وضمور كشحهن ، وكان كل شاعر يحاول أن يبدأ اقرانه بالمبالغة في هذه الأوصاف السخيفة . قالوا ان المتجردة كانت تستر وجهها بذراعها لعبالتها . وكانت عائشة بنت طلحة مثل ذلك ، وقال الأخطل يصف حبيبته أنها كانت اذا نزلت من غرفة عالية يرتجف البيت كله لولا

انه مبنى بالطوب والآجر (١) . ولعل اسخف بيت فى شعر الاحتراف ما قاله احدهم فى وصف امراة ان عجزها كان ضخما يمنع قميصها ان يمس ظهرها ، وان ثديها كان عظيما الى حد يمنع القميص ان يمس صدرها .

أبت الروادفُ والثدى لقمصها مَسَّ الظهور وأن تَمَسَّ بطونا

ويأتى بعد ذلك ما كانوا يسمونه حسن التخلص ثم يندفع الشاعر فى ما يريد ان يقوله .

هذا التمسك بشكل القصيدة اثر من آثار العرف عند اهل البادية ، والعرف له عليهم سلطان يفوق سلطان القانون المدون عند أهل الحضر ، وكان الخروج على العرف يجعل حياة الانسان مستحيلة فى قبيلته ، فسرى ذلك على الحياة الفكرية فى كثير من مظاهرها . والعجيب ان هذا العرف استمر عند اهل الحضر . ولعل السبب فى ذلك أن الشاعر كان يبدأ بقول مالوف لا يحتاج الى امعان فكر ، حتى يستقيم له الوزن والقافية فيندفع فى ما يريد ان يقول . مثله فى ذلك مثل المغنى حين يردد (يا ليل يا عين) الى ان يستقيم له النغم .

ومن السهل أن نهمل هذا الشكل حين نعرض شعر الاحتراف على الادباء المحدثين . وشعر الاحتراف تكثر فيه الاستعارات والتشبيهات البعيدة ، مع انها اصبحت من السهولة بحيث يستطيع تدبيجها المبتدئون فى قول الشعر . على انه من حسن حظ المتادبين المحدثين أنهم لا يعرفون من علوم البلاغة الشىء الكثير ولو عرفوا

---

(١) كان استاذنا لطفى السيد يقول ان الشعراء ارادوا ان يؤكدوا ان حبيبتهم من اهل النعمة وانها ليست من اهل البادية . ويذكرنى هذا بما حدث (لبتجامين فرانكلين) حين عين سفيرا فى باريس ، فتهامس النساء المحترفات من اهل باريس انه فعلا عمل اعمالا بدوية وكان هذا عندهم يكاد يكون سبة .

ابوابها لزادوا من الشعر الغربى نفورا . كان البلاغيون يستحسنون الجناس ، وهو أن تتشابه الكلمتان لفظا وتختلفان معنى ، وقسموا الجناس الى تام ومذيل ومطرف ؛ ولعلهم لم يعجبوا بجماله انما اعجبوا بمهارة قائله وهى الصفة الأولى لشعر الاحتراف . والجناس معرف فى لغات كثيرة ، وأكثره يثير الضحك او الاستهزاء . واذكر ان الدكتور جونسون سمع رجلا يكثر من الجناس فقال عنه هذا رجل لا يطمئن الانسان ان يلقاه فى مكان مظلم . كأنه يقول ان القول بالجناس خداع ، يأخذ الناس على غرة منهم بمعان غير متوقعة .

ثم اصاب الشعر العربى والنثر العربى ايضا نكبة علوم البلاغة وتقعيد اساليب الجمال والعمل على تطبيقها . فلا يجد الشاعر بعد ذلك متسعا للتفكير السليم او البلاغة الحقيقية ، وفى عملهم هذا خلط عجيب فى المنطق ، وكأنهم كانوا يرون البيت الحسن فيظنون ان حسنه يرجع الى ما فيه من صفة خاصة يضعون لها مصطلحا بلاغيا ثم ينتقلون من ذلك الى ان هذه الصفة تجعل البيت حسنا بليغا مهما يكن أمره ضئيلا .

ولو اقتصر امر البلاغيين على مصطلحات قليلة لهان الخطب . ولكنهم اكثروا من هذه القواعد الى حد جعلها غير مقبولة عقلا ولا ذوقا . وسنعرض على المحدثين من باب الفكاهة بعض المصطلحات التى وضعها البلاغيون ومنها الاستطراد والمقابلة والاستخدام والافتنان واللف والنشر والاستدراك والايهام والمطابقة والتسليم والمراجعة والمناقضة والمغايرة والتذييل والتتميم والاكتفاء والاحتباك ورد العجز على الصدر ومراعاة النظير والتوجيه وحسن التخلص والاطراد والعكس والجمع والتفريق والتلميح والتسهيم ويسمى الارصاد والتشريع والرجوع والتورية وأنواعها والتوشيح والتكميل والاحتراس والإيغال والفرائد والمشاكلة وما لا يستحيل بالانعكاس والتوليد والابداع والتطريز والالتفات والتنكيت والتفريغ والتدبيج

والتفسير ويقال التبيين والتعطف والاستتباع والتمكين والتوهيم والالغاز والارداف والاتساع وجمع المؤتلف والمختلف والمزاوجة والتجريد وايهام التوكيد والترصيع والتسميط وسلامة الاختراع والموازنة (١) .

يجب الا نعرض على المتأدبين المعاصرين شيئا من شعر الهجاء كالذى داب عليه فحول الشعراء فى العصر الاموى ، واكثره اشبه بكلام العامة وان كان منظوما على هيئة الشعر . ويجب الا نعرض عليهم المبالغات التى يأباها الذوق السليم . ويجب علينا قبل كل شىء أن نترك للناس حرية استحسان ما يستحسنونه وان لم يعجب به القدماء ، وان يستهجنوا ما يرون استهجانه ولو كان من شعر الفحول .

مثل هذا الاختيار يتيح لهم أن يتقبلوا ما يروقهم ، ويرجى بعد ذلك ان يدفعهم هذا العلم وان كان محدودا الى سد النقص الواضح فى ثقافتهم .

---

(١) نقلا عن الوسيلة الادبية .

فحول الشعراء
فى عصر الأمويين

كان فحول الشعراء فى العصر الأموى كلهم من شعراء الاحتراف، بلغوا به غايته ، فكانت فى شعرهم كل عيوبه وكل المميزات التى اجمع معاصروهم على الاطناب فى مدحها ، وظن الناس أن شعرهم بلغ الذروة . وشغل الناس بالمفاضلة بين هؤلاء الشعراء ، فكان لكل منهم فريق يتحزب له ، وتسابق هؤلاء الشعراء وتباروا فى المدح والفخر ، وكانت قصائدهم على ما فيها من جودة لا تخرج عما قال غيرهم فى هذين البابين ، الا انهم تفننوا فى باب آخر هو باب الهجاء . واحسبه كان فى أول الأمر هزلا يراد منه التسلية ، فلما تفاضلوا فيه أمعن كل منهم فى هجاء رفقائه ارضاء لسامعيه . واذا كانوا لم يجرءوا على ذكر الهجاء أمام الخلفاء والأمراء فانهم لم يتحرجوا من الاقذاع والسب الصريح أمام الناس فى المربد . وبذلك نشأ فن جديد لم يعرف من قبلهم ولم يبلغ ما بلغوه منه عند المتأخرين . ومن هنا نشأت القصائد الطوال المشهورة التى تعرف بالنقائض ، وبعضها جيد من غير شك من وجهة نظر شعر الاحتراف .

أدب الهجاء

النقائض مجموعة عجيبة من القصائد الجيدة ، موضوعها التهاجي بين فحول الشعراء . وقد بلغ بهم الاقذاع فى القول حد الاسراف المرذول . وانا لنعجب كيف استساغ الناس فى صدر الاسلام هذا القول الشنيع ، ولم يكن العصر عصر فحش واسفاف. وكيف استباح كبار الشعراء أن يستبوا بأقبح السباب وان يرمى بعضهم بعضا بأرذل الصفات ، وأن يأتى ذلك كله فى خير شعرهم وأروع قصائدهم . ولو ان ما قالوا كان اقله صدقا ما بقى لهم شان عند الامراء او مقام عند الناس .

ولعل الناس فى عصر النقائض كانوا لا يأبهون كثيرا للوقائع التى ترد فى شعر الهجاء ، بل كانوا يذهبون الى (المربد) لا يلتمسون الا الضحك والتسلية . ولم يكن يخطر لهم ان شيئا مما يقال يمكن ان يكون حقيقة واقعة . وكانوا يستمعون الى ارذل السباب فيكتفون بالضحك وينصرفون وهم يقولون « لقد أخزاهم قاتله الله » . مثلهم فى ذلك مثل الفرنسيين فى اغنياتهم الصغيرة التى يتناولون فيها كبار رجالهم بالهزء والسخرية ، دون ان يعلق بأذهانهم شىء مما يجىء فيها من وقائع . كذلك كانت حال الشعراء فى (المربد) ولو أن مربيا ظن أن ما ينسب الى اهله وقومه قد يؤخذ مأخذ الجد لكان نصيب القائل القتل لسامته .

واذا كان التفاخر حملهم على ذكر الايام والتحدث من الانساب وفضائل الاباء والأجداد فان حاجتهم الى السخرية من اعدائهم حملتهم على تناول الأمور الجنسية فى صراحة مزعجة . وقديما عرف الناس ان أكثر ما يضحك السامعين يكون بالحديث من مثل هذه الأمور . وعرف الشعراء ذلك فأخذوا به ، وتبادلوا الحديث من أمور جنسية على انها اقرب السبل الى اضحاك الناس من معارضيهم !

ولكن هل كانت لهم في ذلك اصول مرعية ام كان الامر فوضى تباح فيه الأعراض ويخالف فيه الواقع مخالفة واضحة الكذب ؟ هل كان لهم من انفسهم وازع ؟

الواقع أن هذه المباريات الشعرية كانت لها قواعد مرعية ، شأن الناس في كل المباريات يحدث ذلك مثلا في الملاكمة ، فان الجاهل بها يظنها ضربات ليس لها ضابط ، على حين ان اهلها يعلمون أن لها اصولا لا يصح أن يحيد عنها احد من المتبارين .

فنحن اذا نظرنا الى أساليب الهجاء وجدناها ثلاثة :

أولا — منها ما لا يكون قائما على ذكر عيب بعينه او واقعة بذاتها ، بل يكون مرجع الهجو فيه الى الاسلوب وحده ، مثال ذلك قول جرير :

فغُضّ الطرفَ إنك من نُمَيْر ‏ ‏ ‏ ‏ فلا كَعْبًا بلغْتَ ولا كلابا

اذ ليس في هذا البيت ما يخجل منه نميرى ، ولكن كلمة « فغض الطرف » لها وقع اليم . وكذلك قوله :

انّ الفرزدق والبعيث وأمّه ‏ ‏ ‏ ‏ وأبا الفرزدق شر ما أستار

هذا السرد يشعر بالمهانة ، وان لم ينسب اليهم عيبا خاصا . وجرير اجدر الناس على هذا النوع من القول ، وقد احسنه في المديح ايضا حيث يقول :

ألستُم خيرَ من ركب المطايا ‏ ‏ ‏ ‏ وأندى العالمين بطونَ راح

هذا اسلوب برىء لا عيب فيه ، والهجو فيه أدبى خالص .

ثانيا — ومن الهجاء ما يكون مرجعه الى صورة مخزية مضحكة . وجرير سباق في هذا النوع من القول كما هو في النوع الاول . انظر الى قوله :

والتغلبي إذا تنحنح لِلْقِرى حك استه وتَمَثَّل الأمثالا!

كان جرير معجبا بهـــذا البيت ، ولم يعجبـــه منه انه الصق بالتغلبيين مسبة البخل ، بل أعجبه منه انه يمثل صورة مضحكة ، فقال مشيرا الى هذا البيت أن أحدهم لو طعن بالرمح في هذا المكان من جسمه ما استطاع أن يحكه بعد أن قال فيهم هذا البيت .

ولبشار ولع بمثل هذا النوع من الهجو . وبلغ من اجرامـــه واســـتهتاره أن قال بيتا فيه صورة مخزية ، ولم يكن أمامـــه من من يلصقها به فنذرها لأول قادم ! !

ثالثا — على ان اشهر أساليب الهجاء ما ينسب فيه الشـــاعر الى غيره صفة سيئة او عملا قبيحـــا والذين ينسبون الى غيرهم وقائع تخزيهم لا يجدون أمامهم الا احـــد سبل ثلاثة . يسبونهم بما ليس فيهم ، وهو لؤم . أو يسبونهم بما يمكن أن يكون فيهم ، وهو نذالة . أو يسبونهم بما لا يمكن أن يكون فيهـــم ، وهو أقل أنواع الهجاء مساسا بالمهجو وأشرفها بالنسبة للشـــاعر . وان كان ذلك يحمله في الواقع على الاسراف والاقذاع وكأنما اتفق الشـــعراء على الا يسب بعضهم بعضـــا بما فيهم ولا بما يمكن أن يكون فيهم من عيب . ولعلهم كانوا يعدون ذلك جهلا بأصول أدب الهجاء . فان ذلك يكون — على حد تعبير الملاكمين — ضربة تحت الحزام لا يقرها أهل الفن ! .

ولا أدل على هذا من أن « عطية الخطفي والد جرير » كان بخيلا مسرفا في البخل . وابنه جرير نفسه شـــهد عليه بذلك . ولم يكن هذا البخل موضع هجو خاص يهجو به الشـــعراء جريرا . وكان الفرزدق حصورا فلم يسرف أقرانه من الفحول في ذكر ذلك عنه . انما عابه به من الشـــعراء من هم أقل منهم قدرا ، وأجهل بأصول التهاجي . ولنذكر أن من قال هذا البيت في الفرزدق :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزًا

ولو رضيت رمح استه لاستقرت

لم يكن من فحول الشعراء .

من ذلك ترى ان كبار الشعراء فى صدر الاسلام ابوا ان يتناول بعضهم بعضا بما يمكن أن يكون فيهم حرصا على كرامتهم ، ورأوا ان اشرف الهجو بالنسبة الى القائل انما يكون حين ينسب الى معارضيه امورا لا يمكن ان تكون حقا . والذى يتهم الناس بما فيهم ، او بما يمكن ان يكون فيهم ، وهم منه بريئون يؤلمهم . اما الذى يتهمهم بما لا يمكن ان يكون فيهم فظلمه لهم اخف وقعا ، وكذبه عليهم أهون ، واحتقارنا له اقل . والقول اذا كان واضح الشطط لا يؤخذ مأخذ الجد . فهم بذلك وضعوا اصلا من أصول الهجاء ، وهو ان اشرفه أن تنسب فيه الى الرجل امور لا يمكن ان تكون فيه . ولم يكن غرضهم من الاقذاع أن يحطوا من قدر زملائهم ، وانما كان غرضهم التسلية والتسابق والابداع فى القول .

بمثل هذا التفسير يستقيم لنا فهم أصول ادب الهجاء عامة والنقائض خاصة . ومنه يتبين أن الاسراف فى الاقذاع لم يكن من شأنه ان يغض من قدر الشاعر او المهجو . بل لعل هذا الاقذاع نفسه كان حماية للمهجو من أن يظن الناس ان هذا الذى قيل فيه يمكن ، ان يكون صحيحا . ولا نزاع انه اذا كان حتما أن يهجو الرجل الشريف شريفا آخر فخير ما يقول فيه أن ينسب اليه ما لا يمكن ان يكون فيه .

وقد تكون هذه النظرية خطأ او صوابا . وقد تكون اعتذارا عما لا يصح الاعتذار عنه . وقد يكون السبب الحقيقى ما بقى فى القبائل من حمية الجاهلية . فلما منعهم الاسلام ان يتقاتلوا بالسيوف والرماح تراشقوا بالسباب . على انى اربأ بكبار ادبائنا ان يسبوا بما لا يليق الا بالسوقة وارذل الناس .

الفرزدق

يرى علماء التحليل النفسى ان شيئا لا يحدث فى عالم النفس عفوا ، وأن الاعمال التى تتعلق بالنفس لابد لها من سبب ، ان لم يكن ظاهرا ، فهو كامن فى اعماق النفوس يظهره التحليل . فالرجل الذى ينسى اسم صديق له والذى يسبقه لسانه الى خطأ غير مقصود والرجل الذى يختار عددا بعينه حين يطلب اليه أن يختار عددا ما ، كل هؤلاء لا يفعلون ذلك عفوا . والآثار الادبية عامة ، والشعر خاصة ، من أدق الظواهر وادلها على تلك الأعماق . وترجع الدلالات فى الأعمال الفنية الى غير موضوعها ، فهذا لا شأن له بالبحث التحليلى ، وانما ترجع الى صفات اخفى . وغاية التحليل النفسى أن نتتبع الأسباب النفسية الخفية التى تصدر عنها هذه الآثار الادبية .

ولعل الفرزدق اسهل الشعراء تحليلا ، فمرضه معروف وآثاره فى حياته وشعره واضحة . كان الفرزدق سيء الخلقة ، سيء الخلق ، سيء التصرف ، عريض الدعاوى ، قليل الاحتشام فى قوله . لم يكن الفرزدق ممن يعنون بالتأنق أو حسن الأدب . دخل على

الخليفة وعليه عمامة كبيرة ، ينشده شعرا في الفخـــر ، وقد يكون هذا شجاعة ولكنه ليس من حسن الذوق في شيء ، ولم يكن متأنقا في شعره ، وبعضه مضرب المثل في الالتواء وسوء النظم ، وله بيت سخيف يقول فيه :

وما مثله في الناس إلا مملكاً   أبو أمه حي أبوه يقاربه

وهو الذي ادخل الالف واللام على الفعل المضـارع وهو ما لم يفعله احد قبله أو بعـــده حيث يقول « ما أنت بالحـــكم الترضى حكومتـــه .... » .

ولم يكن من حسن الادب ان يشـير الى امراة الامير في بيتـــه المعـــروف :

ليس الشفيعُ الذى يأتيك مؤتزراً

مثلَ الشفيعِ الذى يأتيك عريانا

وسنذكر ذلك عند الحديث عن قصته مع النوار .

كان الفرزدق حصورا لا مارب له في النساء ، وعرف عنه ذلك بالرغم مما حاوله من اخفائه عن الناس . ولسنا في حاجة الى بحث عميق لاثبات ذلك . روى صاحب الاغاني أن احد جلســائه قال له وهو يحدثه « لولا اني أعلم ان زوجك منك بكر ...... » . وقد ذكرنا من قبل ما قاله فيه أحد الشعراء :

لقد أصبحت عِرسُ الفرزدق ناشزاً

ولو رَضِيتْ رمح استه لاستقرت

والاشارة هنا صريحة لا لبس فيها والكناية واضحة . وفي هذا العيب مفتاح شخصيته وسر كل ما وقع منه ووقع له من احداث

اظهر ما فى المصابين بهذا الداء خيالهم المريض ، فهم يتصورون الوانا من الفحش لا تخطر ببال الاصحاء ، فهو يشبه فى ذلك ما قيل عن (الماركيز دى ساد) من انه كان به مرض الفرزدق ، فلما سجن فى الباستيل هيأ له خياله المريض الوانا من الشذوذ عرفت من بعده (بالسادزم) . وللفرزدق قصيدة جاء فيها :

فإن هجاء الباهليّين دارما لمَن يدعُ الأيام ذات العجائب

فليرجع إليها من يريد أن يعرف الى اى حد بلغ الخيال المريض بالفرزدق ، وفيها وصف لنوع من المجون كنا نحسبه مما اختصت به اشنع بيوت الدعارة فى عصرنا هذا حيث الناس مرهقون يبحثون عن كل نوع من انواع العهر ، وكنا نحسب ان العرب فى صدر الاسلام لا يعرفون شيئا عن ذلك .

ومن آثار هذا المرض الدعاوى العريضة التى لا اصل لها الا فى مخيلة صاحبها . وللفرزدق قصيدة جيدة مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف
وأنكرتَ من حدراء ما كنت تعرف

روى فيها قصته مع امرأة ادعى انها تحبه وانه يحبها ، فدعا الله ان يصيب بعلها بمرض يلهيه عنهما ، وان دعوته استجيبت واصيب الزوج فى عينيه فلم يعد يرى ما يجرى بين الفرزدق وامرأته . ثم ادعى الفرزدق انه طبيب واخذ يعالج الزوج سنتين وهو يعبث مع امرأته كما يشاء ، وذلك حيث يقول :

دعوت الذى سوّى السماوات أيْدُه
ولله أدنى من وريدى وألطفُ
ليشغل عنى بعلها بزمـــانة
تدلّهه عنى وعنهـــا فنسعفُ
بما فى فؤادينا من الهمّ والهوى
فيبرأ منهـــاض الفؤاد المثقف
فأرسل فى عينيه ماءً علاهُما
وقد علموا أنى أطب وأعـــرف
فداويتُه عامين وهى قريبـــةٌ
أراها وتدنو لى مرارًا فأرشف

فى هذا القول الوان من الانحطاط جديرة ان تجعلنـــا نحتقر الفرزدق غاية الاحتقار ، ويزيدنى شعورا بهذا الانحطاط عنده انى طبيب ، وانه ادعى الطب لغرض يدل على انه ممن لا اخلاق لهم . على انى لا اريد ان آخذ هذا القول ماخذ الجـد ، فالقصة كلهـــا مختلفـــة من اولهـــا لآخرها ، ولم يحدث له شيء من ذلك ، بل هى دعوى عريضة من التى تعودناها عند من بهم هذا الضعف .

من مظاهر هذا المرض مجاهرة المصابين به بالفحشاء وبالفسوق وفى شعر الفرزدق شيء كثير من ذلك . ومن العجيب قوله عن جرير « ما احوجه مع عفافه الى جزالة شعرى ، وما احوجنى مع فسوقى

الى رقة شعره » . وهى كلمة غريبة ، فالفرزدق اعلم بالشعر من أن يجعل بين الفسوق ورقة الشعر سببا ، او بين العفة والجزالة صلة . وكلمة الفرزدق هذه واضحة الخطأ . وحقيقتها لا تتبين الا اذا ذكرنا ما كان عند الفرزدق من ضعف . فهو انما اراد أن يقول : ليت الجزالة دليل على القوة وليت الرقة دليل على الضعف . ثم خلط ـ عن قصد او غير قصد ـ بين القوة والجزالة وبين الضعف والرقة .

وهو اقل شعراء عصره نسيبا . واكثر قصائده بتراء ينقصها النسيب الذى تعوده شعراء الاحتراف . ولم يكن ذلك منه تجديدا بل كان اثرا من آثار ضجره بالنساء وضيق عطنه بذكرهن . فلم يكن يلذه أن يشبب بهن فى مطلع قصائده .

على ان رذائل الفرزدق كلها لم تجتمع فى قصة كما اجتمعت فى ما وقع له مع ابنة عمه النوار . وكانت شريفة جميلة وكان لها كفئا ، وكلته أن يزوجها من أحد الناس ، فخدعها وزوجها من نفسه فاستشاطت غضبا وحاول أن يسترضيها بقوله :

هَلمى لابن عمك لاتكونى كمختار على الفَرسِ الحِمَارا

واضطرت أن تستعدى عليه الأمير ، ولجا هو الى ابناء الأمير ليشفعوا له عند ابيهم ، ولكن الأمير استمع الى شفاعة امرأته فقال الفرزدق فى ذلك :

أما بنوه فلم تَنْفَعْ شفاعتهم وشفّعت بنت مظلوم بن زيّانا

ليس الشفيعُ الذى يأتيك مؤتزراً مثل الشفيعِ الذى يأتيك عريانا

وهي أبيات فيها من الوقاحة وقلة الأدب ما فيها . وانا لنتساءل لم رفضت النوار الزواج منه ، هل كان ذلك للخدعة التي فعلهـــا الفرزدق حين وكلت أمر زواجها اليه ، ام كان ذلك لعلمها بما فيه من عيب . وكرائم السيدات لا يابين أن يتنازلن على أقربائهـــن في في هذا الباب في رفق وادب واحتشام ، ولعلهـــا كانت تظن انه لن يجرؤ على أن يطلب يدها وهي بدائه عليمة . ولعله كان يعلم انهـــا لن ترضى به زوجا ، فخان عهدها . واضطر الى طلاقها وقال في ذلك :

ندمتُ ندامةَ الكسعي لمـــا غدتْ مني مطلَّقةً نوار

جـــريـــر

كان جرير رجلا متزنا مستقيم التفكير مستوى الأداء لم يحلق فى شعره الا نادرا ، ولكنه كذلك لم يسف اســفاف غيره . وصفه المعجبون به انه يغرف من بحر ، وغيره ينحت من صخر وقالوا :

ذهبَ الفرزدق بالفخار وإنما حلوُ الكلامِ ومرُّه لجرير

ومع ما فى شعره من قول جيــد فان العواطف الانسانيــة فيه قليلة ، ومن الصعب أن نجعله شاعرا عالميا ، بل كان كله محليــا موقوتا ببيئته . وشعره رقيق بسيط ومعانيه مألوفة ،وفى صياغته حسن يرجع اليه الكثير من شهرته وعذوبة قوله . وخير مثال على هذه البساطة مدحه الخليفة بقوله :

ألستُم خير من ركبَ المطايا وأندَى العالمين بطونَ راحِ

وقد اشتهر جرير بالعفة ، ولا أحسبه اشتهر بالزهد . ولست أرى الا انه كان شديد الرغبــة فى النساء ، ولا ارى فى شــعره ما يسمى عفة الا أن يكون كل ما يراد من هذه الكلمة انه لم يأت محرما، كان ينظر الى المرأة نظرة الرجل البدائى ، يعتقد انهــا لا يصح أن

يكون لها راى فى نفسها . فاذا ابت احداهن الخضوع لارادته فان لها عنده لجام الجوامح ، وهو سوط اعسده لذلك . وكان يعرف ان للشباب عليه فضلا فى هذا ، ولكنه لم يكن يعد ذلك سببا فى جموح جاريته . وحديثه مع هذه الجارية يدل على نفسيته تماما . قال فيها :

إذا ذكرتْ زيداً ترقرق دَمْعَها بمطروقةِ العينين شوهاء طالح
تبكى على زيد ولم تر مثله صحيحاً من الحُمّى شديد الجوانح
أعزيكِ عما تعلمينَ وقد أرى بعينيك من زيد قذى غير بارح
فإن تقصدى فالقصد بعض خلائقى وإن تجنحى تلقى لجام الجوانح

وقد حمله زيد هذا عناء كثيرا . قال فيه :

تكلفنى معيشةَ آل زيد ومن لى بالصَّلائق والصناب
تقول ألا تضم كضم زيد وما ضَمّى وليس معى شبابى

وجرير فى هذا رجل طبيعى يحب النساء حبا واضحا ، ولكنه كان بريئا من كل عقدة نفسية ـ كما يقول المحدثون ـ ولم يكن يفهم النساء فهم بشار ، ولم يكن يفهم مياسرتهن وعسرهن . فكلهن عنده سواء يجب أن يخضعن لرغبته ، فان ابين فلهن منه علاج هو السوط ! .

بشار بن برد

لا اريد أن اطيل الحديث عن شعر بشار ولا أن استقصى اخباره ولولا أن تحليله ضرورى لتتمة ما بدأناه من التحليل النفسى لكبار الشعراء العرب لما اقدمت على البحث فى شعره لأن حديثه يطول .

يقول بشار انه هجا جريرا وهو صبى ، ولو رد عليه جرير حينذاك لكان اشعر الشعراء ، من ذلك يتبين انه كان يريد ان يتخذ الهجاء وسيلة للشهرة ، فلما اصبح شاعرا معروفا ظل هذا ديدنه . ولم يكن يعنى كثيرا بالقيم الخلقية بل كان مسرفا فى الاستهتار ، ودأب على وصف النساء وصفا مكشوفا الى اقصى حد .

كان بشار اصلا شاعر احتراف ، ولم يكن له حظ من شعر الطبع الا فى باب العلاقات بينه وبين النساء وهو الذى يقول :

لايؤيسنك من مخبَّأة قول تغلظه وإن جرح

عسر النساء إلى مُياسرة والصعبُ يمكن بعدما جمح

وليس هذا تفاخرا اجوف بل كان حقيقة يدل عليها الكثير من الادب المكشوف الذى روى عنه . والذى يعنينا هنا ان نقرر انه كان

شديد الثقة بنفسه فىّ هذا الباب ، رغم قبح منظره . وهو يشبه فى هذا ما روى عن (ميرابو) الذى لم يكن آية فى الجمال ، وكان مع ذلك يقول « دعونى مع أجمل النساء ساعة واحدة » . وليرجع الى الأغانى من يريد أن يعرف أكثر من هذا عن مجون بشار وصراحة ألفاظه فى غير احتشام .

النابغة الذبيانى

النابغة الذبيانى شاعر احتراف من الطراز الأول ، شهد له بذلك معاصروه حتى قيل انه كان يجلس مجلس الحكم بين الشعراء فى سوق عكاظ ، ولم يجدد النابغة شيئا فى موضوع قصائده ولا فى شكل القصيدة ومع ذلك فان فى شعره رواء خاصا به . عرف ذلك بعض النقاد القدماء فقال احدهم « ما كان زهير بن أبى سلمى يصلح الا اجيرا عند النابغة » ، وهى كلمة نابية لان شعر زهير كان شعرا ممتازا وان كان يختلف كل الاختلاف عن شعر النابغة . ولعل قائل هذا القول كان من الذين يرون أن الاخلاقيات ليس فيها من الجمال ما يجعلها صالحة للشعر الجيد . وسنعرض للحكمة فى شعر زهير عندما نقارنها بالحكمة فى شعر المتنبى وبينهما بون شاسع .

والذى يعجبنى من شعر النابغة الذى كان فى اول عهده شهر احتراف خالص ، أن فيه هدوءا واطمئنانا كالخيل الكريمة التى تسبق غيرها ، حتى اذا بلغت قصب السبق لم تجد بها بهرا تتقطع معه أنفاسها ، وكأنما وراء جهدها الذى بذلته جهدا آخر تستطيع أن تبديه أو تبذله لو طلب اليها ذلك . كذلك كان شعر النابغة

لا تحس انه بلغ غاية الجهد فىَ نظمه ، وانه لم تبهر انفاسه ولم يلهث من جراء ما بذل من جهد .

ثم وقعت الواقعة بينه وبين النعمان وكان لهـــا اكبر الاثر فى حياته ، غيرته ما بين عشية وضحاها الى شـــاعر طبع ، يعبر عن احساساته تعبيرا صادقا مخلصا . ولا احسب أن أحدا له أقل علم بالشعر العربى يجهل قول النابغة :

أتانى ـ أبيتَ اللعن ـ أنك لمتنى
وتلك التى أهتمُ منها وأنصب
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهب
فإن كنت قد بلغت عنى خيانةً
فَمُبلغك الواشى أغش وأكـذب
فلا تتركنى بالوعيد كأنّنى
إلى الناس مطلىّ به القار أجـرب
فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ
إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب
ولستَ بمستبق أخا لا تلمّه
على شَعَث . أىُ الرجالِ المهذبُ

وهو القائل :

ولا أنا مأمونٌ بشيء أقولُه
وأنتَ بأمرٍ لا محالةَ واقعُ

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ومن اجمل قوله في الليل :

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذى يرعى النجوم بآيب

ولا بد أن نفسر انزعاج النابغة من غضب النعمان عليه . فمن الخطأ أن نقول ما قاله الحطيئة عن نفسه وعنه أن بهما ضعة ، مع أن النابغة كان من الاشراف وكل ما قيل عنه هو أن الشعر غض من قدره . ولعل الناس حسبوا أن الافراط في الاعتذار ذلة ، وان عاطفة الخوف والقلق والرهبة من علامات الضعة ، وأن التهافت على موائد الملوك بعد غضبهم على ندمائهم لا يعد من صفات الانفة والكبرياء . والواقع أن النابغة كان محترما ، ومن الادلة على ذلك أن شعره كان فيه عيب هو الاقواء (١) ، ولم يجرؤ احد على أن يجابهه بذلك ، فدسوا عليه قينة تغنى شعره وجعلت تمد القوافى حتى فطن النابغة الى الاقواء فتجنبه .

ومن الخطأ أن نقول انه كان يخشى بطش النعمان به ، فالنعمان لم يكن ملكا بالمعنى المعروف ، بل كان على منظرة من مناظر الحيرة يحمى ثغور فارس من اغارة الأعداء عليها . ومن الخطأ ان نقول ان

(١) الاقواء اختلاف اعراب القوافى فى القصيدة الواحدة .

النابغة تهافت على العودة الى قصر النعمان لانه كان يأكل فى صحاف الذهب والفضة من عطايا النعمان . هذا غير معقول ، ولعل كسرى نفسه لم يكن يأكل فى صحاف الذهب والفضة ، فأنى للنعمان أن يكون له ذلك ، وأنى له أن يهب للنابغة صحافا من المعادن الثمينة .

فما الذى افتقده النابغة حين طرد من قصر النعمان ؟

جاء فى الاغانى أن أحد النـــاس قال كان النابغة والله مخنثا . فقلت وما علمك به ، ارايته قط ؟ قال لا والله ، قلت : فاخبرت عنه ؟ قال لا . قلت فما علمك به ؟ قال أما سمعت قوله :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطـــه

فتناولته واتقتنـــا باليـــد

ثم قال والله ما يحسن هذه الاشارة ولا هذا القول الا مخنثكم ! وفى هذا الراى بالطبع اسراف كثير .

والذى نراه غامضا فى حياة النابغة هو أمره من النعمان وعلينا أن نبحث فى ما فقده النابغة حين غضب عليه النعمان ، وفى ما كان يفيده منه حين كان راضيا عنه . واذا اردنا تفسيرا لهذا الغضب فلا بد لنا من البحث فى قصـــة المتجردة ، وهى قصة عجيبـــة لا تستقيم عقلا على النحو الذى رواه رجال الادب . اشخاص هذه القصة أربعة : النعمان والنابغة والمنخل والمتجردة . أما النعمـــان فكان دميمـــا ابرش قبيح المنظر . وكانت المتجردة جميلة وان يكن جمالها مما لا يستسيغه الناس اليوم . كانت عبلة مفرطـــة السمنة ، وكان المنخل من اجمل العرب وكان يتهم بالمتجردة . ولعل ذلك لم يكن خافيا على النعمان . وسأل النعمان النابغـــة يوما أن يصف له امراته . وفى هذا وحده دليل على ان العلاقة بينهما لم تكن تخلو من المجون والعبث والفحش وعلى أن الاحتشام والبعد عن التبـــذل والعفة لم تكن صفات غالبة عليهما .

فلما وصف النابغة امرأة النعمان ذلك الوصف المشهور غضب النعمان عليه غضبا شديدا حتى طرده . ولا ندرى لذلك سببا ، فالنابغة لم يتطوع لهذا الوصف . بل كان قوله استجابة لرغبة النعمان ساعة لهو . قالوا أن المنخل وشى به عند النعمان . ولعله أراد أن الوصف وصف خبير بالنساء . واذا كان الأمر كذلك فما الذى يغضب النعمان فى هذا . ويباح للشاعر حين يصف شيئا أن يبلغ فيه أقصى جماله فان طابق ذلك واقع الأمر فى حالة بعينها فليس ذلك دليلا على معرفته المتجردة .

ولعل الذى غاظ النعمان أن يكون النابغة من حذاق الرجال ـ على حد تعبير الجاحظ ـ واذا كان الأمر على هذا النحو فما الذى يدعو النعمان الى هذا الغضب البالغ على النابغة اذ علم عنه ذلك . الا يمكن أن يكون بين النابغة والنعمان سر لا نعرفه ، ولعله سر غير برىء . ولم يكن النعمان بعيدا عن هذا اللون من المتعة الحرام . فقد كان عمه قابوس بن المنذر والزبرقان بن بدر وأبو جهل وطفيل بن مالك وهم من أشراف قومهم مصابين بما سماه المعرى الداء العضال (١) .

وقد حدث لبشار أن طلب اليه الخليفة أن يصف جارية لقيها خارجة من الحمام فوصفها بشار وصفا لا يقل مجونا وفحشا عن قول النابغة ، فلم يغضب الخليفة ولم يطرد بشارا .

لم يكن غضب النعمان غيرة منه . فان غيرته لم تكن على المتجردة. وقد تكون غيرته من النابغة أن علم عنه حذقا ليس للنعمان منه حظ كبير .

---

(١) عرف الناس كثيرا من اسرار الحياة الخاصة لأكبر رجال الفن العالميين ابان النهضة الاوربية وخاصة فى ايطاليا ، وفيها ما يشبه موقف النابغة من النعمان .

وللمعري قطعة في رسالة الغفران جاء فيها أن الثقات سئلوا كيف تروون قول النابغة اذا نظرت واذا لمست واذا طعمت واذا نزعت أبفتح التاء ام بضمها ؟ فيقولون بفتحها . والظاهر ان المعري كان يختار الضم على أنها من قول النعمان عطفا على الأبيات السابقة

زعم الهمامُ بأن فاها باردٌ عذبٌ ، إذا ماذقته قلت ازدد

زعم الهمامُ ولم أذقه أنه يشفى ببرد لثاتها العطش الصدى

لا نريد ان نسرف في سوء الظن . فقد تكون القصة كلها موضوعة لا أصل لها . وهي على كل حال غير مقبولة عقلا على النحو الذي ترويه كتب الأدب .

وان كانت وقعت حقا فان الأدب العربي مدين للنابغة بشعر جميل وقول صادق ، ولا يكون قوله دليلا على الضعة والذلة ولكن يكون ندما صادقا على ألوان شتى من لذات الحياة حرمها يوم خرج من قصر النعمان .

* * *

لم أحاول ان أرتب الشعراء الذين تحدثت عنهم ترتيبا زمنيا ؟ فهذا معروف مشهور ، وانما قسمتهم الى شعراء طبع وشعراء احتراف ، وبدأت بمن كان في شعره مقطوعات من شعر الطبع (امرؤ القيس) ، ثم ذكرت شاعرا جعل كل شعره من هذا النوع (عمر بن أبي ربيعة) ، أما شعراء الاحتراف فقد ذكرت منهم الفرزدق وجرير ، ولا يكاد يكون لهم شعر غيره . ثم ذكرت شاعرا هو أصلا من شعراء الاحتراف المبرزين الا انه حاول شعر الطبع في باب واحد هو المجون (بشار بن برد) . وأفردت فصلا خاصا بالنابغة الذبياني لأن تحليله النفسي يدل على حال تختلف عن حال غيره من الشعراء الذين حاولنا تحليلهم النفسي ، (ثم ذكرت شاعرا

هو اصلا من شعراء الطبع غلبت عليه ظروف بيئته فقال من شعر الاحتراف مالا يقل جودة عما قاله (ابو نواس) ، ومن الواضح انه قال ذلك على مضض) .

وحاولت أن ابين علاقة كل واحد من هؤلاء بحالته النفسية وخاصة ما يتعلق بموقفهم من المغامرات مع النساء . وبينت ان امرؤ القيس اخفق فى مغامراته مع كل من حاول التحبب اليهن ، شريفات كن أو فاجرات أو محترفات . وبينت ان عمر بن ابى ربيعة نجح فى كل مغامراته ، فكن يتوددن اليه وان لم يعترفن بذلك صراحة ، خوفا من ان يشهر بهن ، ونجح فى توده اليهن وكن جميعا من كرائم السيدات . وذكرت ما كان من اخفاق الفرزدق مع جميع النساء ، وبينت أسباب ذلك ، وشرحت ما كان به من مرض أدى الى هذه الحال التى جعلت حياته كلها بل وشعره كله محل نقد شديد . وبينت أن جريرا كان رجلا طبيعيا مع النساء ولم يكن عنده من العقد النفسية شيء . وذكرت أن بشار بن برد كان ، على ما به من اكثر هؤلاء الشعراء قدرة على اجتذاب النساء اليه أما النابغة فله شأن غير شأن هؤلاء الشعراء .

محاولة التحليل النفسى للشعراء ، والفنانين والقادة الزعماء من مشاهير الرجال عمل قد يكون فيه خطأ واسراف وشطط ، وقد يكون فيه صواب ودقة وتعمق . هذا الشك فى نتائج التحليل النفسى قائم دائم . ومهما تكن الأحكام التى تصدر من التحليل النفسى صادقة أو غير صادقة ، علمية أو غير علمية ، فانها دراسات ممتعة لا يرى المحدثون اغفالها .

أبــو نــواس

ابو نواس شاعر محبب الى الأدباء المحدثين ، درسوا حيــاته وشعره وأخلاقه دراسة عميقة مستفيضة فيها كثير من الطرافة ، وبعضهم حاول ان يصف ابا نواس بصفات نفسية مستمدة من مصطلحات الغربيين ، وبعض هذه المصطلحات لا يتفق مع نفســية ابى نواس الا بتأويل بعيد ولا اريد استقصاء ما فى شعر ابى نواس من صفات خاصة به ، وسأقصر بحثى على ما فى ديوانه من أمثلة على شــعر الطبــع .

اراد ابو نواس ان يحتذى شعراء الاحتراف ، ليدل بذلك على انه لا يقل عن اكبر شعراء هذا الفن اتقانا له ، وانه انما عدل عنــه الى شعر الطبع احتقارا لما جرى عليه العرف حينذاك .

وقد حار الناس فى تفسير قوله يمدح هارون الرشيد :

وأخفتَ أهلَ الشِّرك حتى إنه ... لتخافُك النُّطَفُ التى لم تخلق

وقال النقاد ان هذا من المبالغات السخيفة التى لا يقبلها العقل، ولى فى هذا البيت راى ، لم يكن ابو نواس من الجهل بالشعر بحيث

لا يدرك ما في هذا القول من سخف ، ولكنه اراد أن يتهكم من طرف خفي على المبالغات التي داب عليها شـــعراء الاحتراف . والبيت صورة كاريكاتورية للمبالغات التي تعودها الشعراء .

بدأ أبو نواس باظهار احتقـــاره للذين ظلوا يعجبون بالشـــعر القديم ، وله في ذلك اقوال كثيرة :

عاجَ الشقيُّ على رَسْمٍ يسائِلُه　　وعجتُ أسألُ عن خمّارة البلد

يَبْكي على طَلَلِ الماضين من أسدِ　　لا دَرَّ دَرُّك قل لي من بنو أسد

لاجفَّ دمعُ الذي يبكي على حجر　　ولاصَفا قلبُ من يصبو إلى وتد

وله كثير من المقطوعات في هذا المعنى . ولا اظن ان هذا من اثر الشعوبية التي كانت منتشرة حينذاك ، وانما هو احتقار لشـــعراء الاحتراف وابقائهم على العرف الذي جرى عليـــه الأعراب قبل ان يبلغ العرب من الحضارة ما بلغوه في عهد العباسيين .

وابو نواس من أكبر شـــعراء الطبع ، وشعره من خير الأمثلة عليه . والعجيب في امره انه برز في شعر الاحتراف ومدح الخلفـــاء كما مدحهم الآخرون . واحسب ان ذلك كان على مضض منه ، لأنه لا يوافق طبيعته .

ونحن نظلم أبا نواس حين نقول أن خمرياته هي خير شعر ،وهي في الواقع شعر جيد من جهة انه شعر طبع . على أننا نجد في شعره صورا اخرى من شعر الطبع غير الخمريات . وهو من أقدر الشعراء العرب على التصوير . وسنعرض لهذا عندما نتحدث في فصل لاحق عن التصوير في الشعر العربي .

انظر الى قوله فى الشباب :

كان الشبابُ مطيةَ الجهلِ ومحسّن الضحكات والهزلِ
كان الجمال إذا ارتديت به ومشيت أخطر صيّت النعل
كان المشفَّع فى مآربـــه عند الفتاةِ ومدركَ النيل
والباعثى والناسُ قد رقَدوا حتى أبيت خليفة البعل
والآمرى حتى إذا عزمتْ نفسى أعان يدىّ بالفعل
فالآن صرتُ إلى مقاربة وحططتُ عن ظهر الصبا رحلى

يقول أن الشباب هو الذى جعل الهزل حسنا ،وأنه هو الجمال عندما يمشى مختالا (صيت النعل) وأن الشـــباب هو الذى كان يشفع له عند النساء فيدرك منـاه منهن ، وانه هو الذى دعاه الى الصعود الى النساء ليخلف بعولهن ، وانه هو الذى ينفذ له بالفعل ما يعـزم عليـه .

هذا شعور صادق بالشباب وما يعمله فى حياة الانســان ومثله قول القائل :

ولقد نزعتُ مع الغواة بدَلْوهم وأسمت صرح اللّهو حيث أساموا
وبلغتُ ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارةُ كل ذاك أثام

على أن هذا القول أشبه بالحكمة منه بالشـــعر الذى جاء به ابو نواس تفصيلا .

ومن الظلم للمتنبى أن نقارن بين قول أبى نواس وبين قوله هو :

متى كنّ لى أن البياض خضاب
فيخفى بتبييض القرون شباب

والمتنبى معروف بكثرة مطالعه السيئة ، وهذا البيت من أسوئها . ومع اعترافنا بأن ذكر الشباب فى مطالع القصائد ليس الا عرفا ، مثله فى ذلك مثل الاطلال والتشبيب ، فان المقارنة بين القولين توضح لنا بالضبط كل ما نحبه من شعر الطبع ، وكل ما نكرهه من شعر الاحتراف . والمتنبى يريد ان يقول انه يتمنى ان يكون بياض شعره خضابا ، وان يكون تحته شباب خفى . والعاطفة مكذوبة والتعبير عنها فيه التواء . ومثل هذا فى شعر المتنبى قوله :

خُلقت ألُوفًا لو رددت إلى الصِّبا

لفارقتُ شيبى موجَع القلب باكيا

عاطفة مكذوبة لا تدل على شعور صادق بالشيب والشباب .

شعر ابى نواس يعطينا صورا جميلة صادقة عن حياة اللهو والمجون فى بغداد فى ذلك العهد ، وليس لنا ان نعيب عليه هذا الوصف الشائق للمجون ، فالرجل لا يدعى انه واعظ او انه يدعو الى الاخلاق الكريمة والزهد فى لذات الحياة . وانما هو شاعر يتمتع بالحياة ويصفها وصفا شائقا .

ولا اريد ان اطيل فى وصف خمرياته المشهورة ، واكثرها معروف عند الأدباء جميعا . ثم جاء بعده من حذا حذوه ، وأسرف الشعراء فى ذكر الخمريات دون ان يكون ذلك من طبعهم . بذلك وقع شعر الخمر فى ما وقع فيه الشعر العذرى من قبل حتى كاد يصبح شعر احتراف . وكذلك فعل اكثر الشعراء بالبكاء على الأطلال بعد ان وضع لهم امرؤ القيس انموذجا لذلك على ان امرأ القيس كان صادقا ومن جاءوا بعده كانوا محترفين .

وقد يرى كثير من المحدثين ان اكثر وصف الخمر يكاد يكون مقصورا على انها صفراء فوقها حبب أبيض ، فهى فضة ذهب .

والعيب فى ذلك على مقلدى ابى نواس ولا ذنب له فى ما عرض لشعر الخمريات بعده من ابتذال .

ويخيل الى ان ابا نواس لم يقل شعره فى الخمـــر وهو قابع فى داره ، وانما قاله وهو متلبس بجريمته .

ولا نستطيع ان نغفل شعر بشار بن برد ، وهو شاعر مجيد من غير شك ، ولكنى أراه شاعر احتراف بطبيعته ، وانه لم يقل الشعر على سجيته الا حين تناول المجون ، وهو مسرف فى ذلك الى اقصى حد ، وفيه فحش لا نستطيع ان نذكره هنا ، وعلى من يريد ذلك ان يبحث عن اخباره فى كتاب الأغانى . واحسب أن مجونه كان مقصودا لذاته ، وان شعره فى هـذا الباب اقرب ما يكون الى ما نسميه الآن الادب المكشوف . وسنعود الى بشار عند الكلام عن فحول الشعراء واكثرهم من شعراء الاحتراف .

الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى

الجمال فى الشعر اكثر تنوعا واصعب تحليلا واعصى على التحديد من الجمال فى غيره من الفنون . ويختلف الناس اختلافا شديدا فى تقديرهم لجمال الشعر ، وتختلف معايير هذا الجمال فى الامة الواحدة من عصر الى عصر . ولا احسب أن أحدا من اهل امة ما يستطيع أن يدرك كل الجمال الذى يكون فى شعر امة اخرى ، ذلك ان جمال الشعر نوعان ، نوع انسانى عام يتناول وصف النفس البشرية وعواطفها وتاثرها بمختلف المؤثرات ، وهذا النوع من الجمال يفهمه اكثر الناس على اختلاف مشاربهم فهما عقليا . وهناك الجمال الحسى الخاص الذى لا يدركه ادراكا تاما الا اهل اللغة التى كتب بها الشعر . وهذا الجمال الخاص يتعلق بالكلمات جرسها ومعناها وتاريخها وقوة تاثيرها وما يحيط بها من ظلال دقيقة وما يكون فى تركيبها من موسيقى . والناس « يحسون » بالجمال الخاص ولكنهم « يفهمون » الجمال الانسانى العام .

ويختلف الشعراء فى عنايتهم باحد هذين النوعين من الجمال ، فمنهم من يعنون بالجمال الخاص ، يحرصون على موسيقى الشعر

أشد الحرص . وآخرون يعنون بالمعاني الانســانية العالمية . ومن الطبيعي أن تعنى كل أمة بالجمال الخاص في شعرها لأن أهلها أقدر على ادراكه والشعور به . ومن الطبيعي أن يكون الغرباء أكثر تعلقا بالصفات الانسانية في شعر غيرهم . ويقول (فيرلين) أن الشــعر لا قيمة له الا بقدر ما يكون فيه من موسيقى ، أما البلاغة فيجب أن « تلوى عنقها » . هكذا عبر عن احتقاره للبلاغة في الشعر . وأكثر الناس على هذا الرأى حين يتحدثون عن شعرهم ، وأكثرهم على غير ذلك حين يتحـدثون عن شعر غيرهم ، لصعـوبة احساسهم بالموسيقى في غير لغتهم مهما يكن اتقانهم لها . وهل يستطيع غير الفرنسي القح أن يشعر بالموسيقى التي في بيت راسين :

Phe'dre, Fille do Minos de Pasiphar

وهو البيت الذى قال عنه (أندريه جيد) أنه من أجمل ما في اللغة . وهل يستطيع غير الانجليزى أن يشـعر من تلقاء نفسه شعورا خالصا بجمال البيت الذى جاء على لسـان (ماكبث) .

After life's fiit ful Fever he sleeps well

يشيد الانجليز بجمـال هذا البيت الذى نصــفه الأول يدل بموسيقاه على اضطراب الحياة وقلقها كأنها الحمى ، ويدل نصــفه الثاني على الهدوء التام والسكينة (١) .

ونحن وحدنا قادرون على ادراك الجمال الحسى الخالص في الشعر العربي نشعر به ونطرب له ، ولا يشعر به غيرنا . وعلينـا وحدنا يقع عبء البحث فيه عن هذا الجمـال الخاص ، نقيسـه بمعايير جديدة تكون أقرب الى ذوقنـا الحديث . قد يقال اننـا ما دمنا ندرس الشعر العربي فيجب أن نقيس جماله بما كان يطرب له العرب أنفسهم . وهذا قول خطأ لأنه يخالف طبائع الأشـياء . والأذواق في الأمة الواحدة تتطور على الزمن . وقد تؤدى المعايير

---

(١) قيل مثل هذا في بيت جميل :

ألا أيهـا النوام ويحكمو هبـوا   أسائلكم هل يقتل الرجل الحب !

الجديدة للجمال الحسى فى الشعر العربى ، الى الاعجاب بشـــعر قديم لم يقدره القدماء ، والى نبذ كثير مما كان يرى أسلافنا انه شعر جميل .

ومن الحق أن نعترف أن أكثر الشعر العربى يحظى بالجمـال الخاص القائم على اللغة وموسيقاها . والذين يعجبون بشعر جرير مثلا يجدون من الصعب أن يجعلوه شعرا انسانيا عالميا ، لأن جماله كله من النوع الحسى الخاص .

الموسيقى فى الشعر العربى

يقول العرجى :

فهيدى جوان على حبها أليس بعدل عليها جوان؟

* * *

الشطر الأول من هذا البيت فيه حركة موسيقية بطيئة تمثلها المقاطع الطويلة وهى حركة توحى بالاطمئنان والثقة . اما الشطر الثانى فحركته سريعة ومقاطعه قصيرة ، وهو يوحى بقلق الشاعر وشكه فى ان يكون الأمر على خلاف ما ظن . ويشعر بتلهفه على التأكد من ان اطمئنانه له ما يسوغه . والحركة فى كل من السطرين تعبر من احساس الشاعر تعبيرا جميلا ، وانتقاله من حركة الى اخرى انتقال جميل . هذا كله يجعل للبيت موسيقى خاصة . وهو هندى من أجمل أبيات اللغة على ما فيه من بساطة وبعد من المحسنات من اى نوع تكون . كان جوان (بضم الجيم) رجلا صالحا تقيا لا شان له بالمحبين واحبابهم ، وروى انه غضب ان رأى العرجى يقحم اسمه فى مثل هذا المقام . ولا اظن ان الشاعر اختار اسمه الا

لمـا رآه من مطابقة للموسيقى التى فى البيت . وقد يكون اختياره لجوان دون غيره من الاسماء المشابهة عملا من أعمال العبث الخفيف الذى يعجب الغزليين ، فهم يلذهم أن يثاروا لأنفسـهم من تزمت الصالحين والاتقياء ، وتساميهم عليهم .

قد يقال أن بحوراً بذاتها أو رويا بعينه يكفل للشعر موسيقاه. وسنرى فيما بعد أن القصيدة الواحدة تكون فيها ابيات موسيقية واخرى على نفس الروى ليس فيها من الموسيقى شىء .

قال لى بعض الموسيقيين انه يخشى أن تكون الحركة الموسيقية التى أتحدث عنها نتيجة لطريقة الأداء وهذا صحيح الى حـد غير بعيد . والأدلة على أية حال عامل كبير فى ابراز الصفات الموسيقية، والأداء لا يمكن أن يحول البيت غير الموسيقى الى بيت موسيقى .

وليس عجيبا أن تكون العناية غير الواعية بالموسيقى فى الشعر قد بدأت فى المدينة عند الشعراء الغزليين .

يقول عمر بن أبى ربيعة :

تشكّى الكميت الجرى لما جهدته

وبيّن لو يستطيع أن يتكلما

* * *

يخيل الى أن فى هذا البيت حركة موسيقية تمثل جرى الخيل وسيرها خببا . وهذا مثل نادر جدا من امثلة التصوير الموسـيقى الرائع .

وقد سبق لى أن ذكرت فى دراسة لشعر المتنبى انه لم يكن ذا حظ من القدرة على ابراز الصور الحسية على نحو يزيد فى جمالها . ولا اعد هذا عيبا ولا نقصا وانما هو تقرير للواقع . ولست من الذين

يقولون ان الشاعر يجب ان يبرز فى كل فنون القول لأن هذا لا يصدق الا على صغار الشعراء . وما زلت ابحث عن سر اعجاب الكثيرين بشعر المتنبى حتى تبينت ان له موهبة موسيقية ، قد تكون سر سلطانه على المتذوقين للأدب العربى ، وهو سلطان لا نزاع فيه .

من ذلك قوله فى قصيدته الجميلة :

ألا كلُّ ماشية الخيزلى فدا كل ماشيةِ الهيلبى (١)
وكل نجاة بجاوية خنوف ومالى حُسن المشى
ولكنهنَّ حبالُ الحياة وكيد العداة وميط الأذى

الموسيقى فى هذا البيت الاخير واضحة جميلة وفيه تمثيل لسير النوق الكريمة سيرا هادئا لينا تتتابع خطاها فى سهولة ، وتتشابه حركة سيرها كما تتشابه العبارتان حبال الحياة وكيد العداة .

فى هذه القصيدة بيت آخر :

وشعر مدحت به الكركدنَّ بين القريضِ وبين الرقى

الشطر الاول سريع الى حد ما . اما الشطر الثانى فحركته بطيئة والمقابلة بينهما جميلة . وليست من قبيل المقابلات اللفظية . والهبوط من السرعة غير المسرفة الى البطء الواضح يمثل هبوط آماله حين مدح من لا يستحق المدح .

---

(١) يعنى كل امرأة تمشى الخيزلى فداكل ناقة تمشى الهيلبى اذا كانت سريعة ، لا لانه يفضل مشية على اخرى ، ولكن لان النوق حبال الحياة .

وفى القصيدة بيت مشهور :

وكم ذا بِمصرَ من المضحكا ... ت ولكنّه ضَحِكٌ كالبكا

هذا البيت فيه تفكير ودقة فى النقد وشعور بالغضب والأسى ، ولكنه خال من الموسيقى التى رأيناها فى الأبيات السابقة . وأؤكد للقارىء أن رأيى فى هذا البيت لا يرجع الى ما فيه من هجاء لمصر . وما زلت على رأيى القديم أن ما قاله المتنبى أثناء اقامته فى مصر هو خير شعره كله . وللمتنبى قصيدة جميلة جدا مطلعها :

صَحِبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهُمْ من شأنه ما عَنانا

وتوَلّوا بِغُصَّـــةٍ كلهم منـــــــه ... وإن سرّ بعضهم أحيانا

البيت الثانى شطره الاول متمهل نوعا وشطره الثانى واضح البطء . وكلتا الحركتين تطابق المعنى مطـابقة عامة ، وموسيقى البيت توحى بأن الزمان حين يأتى بالغصص يأتى بها سراعا ، وحين يأتى بالسرور يأتى به على مهل .

وليس فينا من لا يعجب بقصيدة المتنبى :

عيدٌ بأيّة حال عدت ياعيد ... بما مَضَى ، أم لأمرٍ فيك تجديد

أما الأحبةُ فالبيْداءُ دونهمو ... فليت دونك بيدا دونها بيد

الشطر الثـانى من البيت الاخير فيه موسيقى واضحة . وفى قوله « بيدا دونها بيد » تمثيل لبعد الشقة بينه وبين من يحب بأكثر مما تدل عليه الالفاظ وحدها .

ولابد ان أشير هنا الى قصيدة المعرى التى حفظناها جميعا وقوله فيها :

وقبيحٌ بنا وإنْ قَدُمَ العهدُ هوانُ الآباء والأجدادِ

وكل كلمة فى هذا البيت ذات مقطع طويل ، والحركة الموسيقية فيه تنساب انسياب الماء فى النهر الهادىء ، الا قوله « وان قدم العهد » . فهذه الجملة المعترضة تختلف اختلافا تاما عن بقيةالبيت، كأنها صخرة تعترض سير الماء ، وللجملة المعترضة معنى يزيد فى قوتها ان تكون معترضة موسيقيا أيضا .

على انى اعتقد ـ وقد اكون مسرفا فى هذا الاعتقاد ـ ان اجمل قصيدة عربية ، من الناحية الفنية هى قصيدة (تأبط شرا) الذائعة الصيت :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه مايطل
خلف العبء علىّ وولّى أنا بالعبء له مستقل(١)

فى هذه القصيدة الشىء الكثير من الجمال الذى سميناه الجمال الانسانى العام . ويستطيع كل قارىء عربيا كان أو غير عربى ان « يفهم » هذا الجمال . فيها كل عواطف البدو حين تشتد بينهم العداوة ، وفيها الحرص على الاخذ بالثار ، وفيها الفخر والشجاعة والصرامة واباء الضمير ، ومدحه للقتيل يزيد فى فداحة الخطب ،

ومدحه لنفسه بجعله اهلا للاخذ بالثأر . كل هـذه المعانى تصف البداوة وصفا رائعا . ومثلها كثير فى الشعر العربى ، الا ان اجتماع هذه العواطف فى قصيدة واحدة تزيد فى روعتها .

ولكن القصيدة تمتاز بموسيقاها امتيازا واضحا ، والحركة فيها حركة خاصة جدا ، اكثرها سريع وبعضها بطيء كانهـا حركة الخيل فى الكر والفر فى حومة الوغى عند التقاء الفرسان ، واصواتها تعلو وتهبط على غير نظام ، كانها صوت النار الموقدة حين يلقى فيها الوقود ، فتنفجر تفجرات جافة قصيرة تتتابع سراعا ، ثم تبطىء احيانا . وهو تعبير ليس كمثله تعبير عن روح الشاعر ، جياشة ثائرة غاضبة ، لا يكاد يستطيع كبحها عن أن تثأر للقتيل لساعتها .

ويلاحظ أن الشعر الذى يمتـاز بجمـال موسيقاه ليس فيه محسنات لفظية أو معنوية . وعندى أن هذه المحسنات تفسد المعنى والموسيقى ، وتذهب بكل ما فى الشعر من جمال حقيقى .

وليس من الموسيقى التى اتحدث عنها أن يكون البيت مقطعا تقطيعا واضحا ، كما نراه فى شعر أبى العتاهية وبيته المعروف :

أتته الخلافةُ منقادةً إليه تجرّر أذيالَها

هذا القول ليس فيه من الموسيقى شيء ، بل هو اشبه بضربهم الدف منه بالموسيقى . وخير من ذلك قليلا قول الشاعر :

ياليل الصبُّ متى غدُه أقيامُ الساعةِ موعدُه

. والنغمة راقصة جميلة . ولا يفسدها الا ان موسيقاها لا تتفق مع ما يريد الشـــاعر إن يشكو منه وهو طول ليل المحبين وبعـد الاصباح .

وخير من ذلك كثيرا قول المنخل :

ولقد دخلتُ على الفتاة الخد ر فى اليومِ المطيرِ

هذه موسيقى خفيفة مرحة توافق روح شـــاعر ماجن لا يعنيه الا ما يصيب من لذات الحياة . وسواء عليه ان يشرب فيظن نفســه كسرى ، او يصحو فلا يجد الا الشاة والبعير . وهو فى الحالين مرح ماجن مسرف فى المجون الى أن بلغ الغاية حيث يقول :

وأحبُها ونحبى ويحبّ ناقتها بعيرى

وهذه القصيدة على مجونها يطرب لهـا العربى لموسيقاها . ويفهمها غير العربى لصدق عاطفتها .

التصوير فى الشعر العربى :

التشبيه والاستعارة والمجاز من الصـــور البلاغية المعروفة فى اللغات جميعا . ولا نزاع أنها تزيد فى جمال الصور الحسية والمعنوية حين يحسن الكتاب استعمالها . هذا اللون من البلاغة كثير فى الادب العربى عامة وفى الشعر خاصة . ولعله ان يكون فى أدبنا أكثر منه فى الآداب الاخرى .

وكثير من النقاد القـدماء كانوا يعدون التشبيهات الغريبـة والاستعارات البعيدة أكبر ما يتفاضل فيه الشعراء . وكانوا يعدونها

مقياسا يقاس به التفوق فى روائع الشعر والنثر ، وعيب على بعض كبار الكتاب خلو أدبهم من العاريات المستملحة . من ذلك ما عابه بديع الزمان على الجاحظ حيث يقول « فهلموا الى كلامه (أى الجاحظ) فهو بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله. فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ فقلنا لا » .

ولا اظن احدا منا يرى أن هذا عيب فى أدب الجاحظ ، ولا اظن ان الذوق الحديث يضع اسلوب الهمذانى المنمق فوق اسلوب الجاحظ حتى فى ابسط ما كتب . ذلك أن الجاحظ كان يعنى بموضوع ما يكتب أكثر مما يعنى بالتشبيه والاستعارة حين لا يكون لذلك فضل فى ابراز سورة او ايضاح معنى .

والواقع أن التشبيهات لا تكون شيئا ذا قيمة الا ان تنقل الى السامع صورا من المشبهات اجمل واوضح . اما الاستعارات فقد ذاعت وكثرت حتى اصبح أكثرها مبتذلا . ولا ارى شيئا من الجمال فى قول بديع الزمان فى مقامته الجاحظية « فكل كشر له عن ناب الانكار ، واشم بأنف الاكبار » والصورتان قبيحتان والمحدثون يرون انه يكون ابلغ لو قال فانكرنا قوله واكبرناه .

ومن التشبيهات التى لا معنى لها قول امرىء القيس .

له أيطلا ظَبي وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفلِ

وكذلك قوله :

ترى بعرَ الآرام فى عَرَصاتها وقيعانها كأنه حب فلفلِ

فاذا كان هذا تشبيها فهو قول هراء — والشعراء عادة لا يتحدثون عن بعر الارام — على انى اعتقد ان هذا البيت لم يقصد به التشبيه ، وانما اريد به ان عهد الاطلال بسكانها قديم حتى اصبح بعر الارام جافا كحب الفلفل .

وليس من الجمال فى شىء قوله :-

فقلت له لمّا تمطّى بصُلبه وأردفَ أعجازا وناء بِكَلْكَل

هذا البيت وان كان يدل على البـداوة فهو لا يزيد فى وصف الليل شيئا . على حين أن قوله (وليل كموج البحر) قول جميـل لأنه يدل على ما كان لليلته هذه التى يصفها من اثر فى نفسه .

ولا اظن احدا فى مصرنا هذا يرى ان امرأ القيس أجاد فى وصفه شيئا واحدا فى حالين مختلفتين بشيئين مختلفين حين قال :-

كأنّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابساً

لدى وكرها العنابُ والحَشَفُ البالي

اذ ليس فى هـــذا البيت صورة تجمل وصف قلوب الطير اوضح او أجمل مما يراه الناس فيها .

مثل هذه التشبيهات كثيرة جدا بعضها يثير فينا الضحك مثل تشبيه توفيق البكرى الهلال بأنه « خنجر من ضياء ، يشق الظلماء، او قلادة ، او سوار غادة ، او سنان لواه الضراب او الليل فيل وهو ناب »

والاسراف فى الاســتعارة والمجاز قد يكون دليلا على ضعف التاليف وسقم الخيال .

التشبيه والاستعارة والمجاز امور تافهة لاقيمة لها الا اذا كانت فيها صور اوضح او اجمل او اوقع فى النفس من الكلام المجرد ، ولا عبرة بما يكون فيها من غرابة .

فمن التشبيهات التى تعطينا صورة واضحة قول عدى بن الرقاع :

تُزْجِى أغن كأَن إبرة رَوْقِه قَلَمٌ أصابَ من الدواةِ مدادَها

هذا التشبيه رائع حقا لصدقه . فهو يكاد يكون تصويرا فوتوغرافيا ، والمطابقة بين الصورتين تجعل لهذا البيت جمالا عجيبا ، وقد لا نجد له مثيلا فى تشبيهات الشعراء على كثرتها .

وقد يكون فى الشعر صور جميلة دون أن يكون فيه تشبيه أو استعارة ومنه قول امرىء القيس :

فظل العذارى يرتمين بلحمها . وهذا يدلنا على ما كان يفعله العذارى من مرح وصخب وسرور يدعوهن الى التقاذف بلحم الدابة المذبوحة ويكاد الانسان يشاهد عبثهن ويسمع ضحكهن . ومن جيد قوله :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا

وفيه صورة لحصانه الثائر المتوثب الذى لا يكاد صاحبه يكبحه .

وقول النابغة :

فإنك كالليلِ الذى هو مدركى
وإن خلتُ أن المُنتأَى عنك واسعُ

هذه صورة جيدة يرى فيها الانسان رجلا فزعا يريد أن يهرب من الليل وهى صورة مخيفة لرجل بلغ به الرعب غايته .

وعندى أن اقدر الشعراء العرب على التصوير أبو نواس واظنه لا ضريب له بين الشعراء العرب فى هذا الباب . ومن ذلك قوله :

ذكر الصَّبوحَ بسحْرة فارتاحَا   وأملَّه ديكُ الصَّباح صياحَا

أوفى على شرف الجدار بسدفة   غَرِدًا يصفق بالجناح جَناحا

هذه الصورة واضحة جميلة تتبين فيها حركة الاجنحة عند صياح الديك ، وفى هذا براعة فنية وان لم يكن فى البيت تشبيه غريب ولا استعارة بعيدة .

ومن ذلك قوله يصف فرسه :

فإذا قصرت لها الزِّمامَ سما   فوق المَقَادِم ملطمٌ حـرٌ

فكأنها مُصغٍ لتُسمَعَـهُ   بعض الحديث بأذنه وَقْرُ

والصورة التى فى هذا البيت صورة صادقة بارعة فهو يصور لنا فرسه وهى ترفع راسها الى ناحيته كأن باذنها وقرا فهى تتجه الى راكبها تريد أن تنصت الى ما يقول .

وله كذلك بيت يصف رجلا نام فتوسد ذراعه منثنية تحت راسه . والصورة وان كانت مالوفة الا أن وصفها يدل على براعة فنيـة واضحة ، وذلك حيث يقول :

وسلته ثني ساعده   سنة حلت إلى شفرة

ونحن نظلم ابا نواس حين نقول ان خمرياته اجـود شعره والخمريات الجيدة قليلة . ومن الانصاف أن ننظر الى شـعر ابى نواس على انه أجود الشعر فى التصوير .

ويتضح ذلك حين تقارنه بشعر المتنبى حين يحاول تصـوير المحسوسات من ذلك قوله :

فأقبل يَمْشي فى البساط فما دَرَى

إلى البحرِ يَسْعَى أم إلى البدر يرتقى

والصورة التى نجدها فى قوله « كأنك فى جفن الردى وهو نائم » صورة مستحيلة . ومن الذين اجادوا الوصف الصادق الحق الجميل دون اسراف فى التشبيه البحترى وقصيدته مشهورة حيث يقول :

فإذا ما رأيت صورة أنطا   كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثلٌ وأنوشر   وانَ يُزجي الصفوف تحت الدرفس

وقديما اعجب الناس قول أبى المعتز يصف الهلال :

انظر إليه كقارب من فضة   قد أثقلته حمولةٌ من عنبر

والصورة واضحة وان كان الشاعر بالطبع لم يشهد قاربا مملوءا بالعنبر ، وعندى أن التشبيه مقلوب ولو كان عند ابن المعتز قارب من فضة مملوء بالعنبر فوصفه انه كالهلال لكانت الصورة اجمل .

ومن الأبيات التى تحدث عنها البلاغيون كثيرا أبيات أطنب الجرجانى فى بيان بلاغتها وخاصة الشطر الثانى من البيت الثالث :

فلما بلغنا من منًى كلَّ حاجة   ومسح بالأركانِ من هو ماسحُ
وشدت على ظهر المطايا ركابنا   ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وسالتْ بأعناق المطىّ البطائح

والشطر الأخير جميل من ناحيتين ، من ناحية موسيقاه التى تدل على حركة بطيئة مستمرة ومن ناحية تصويره للعدد الكبير من المطايا تسير جنبا الى جنب كأنها السيل .

ومع ذلك فاني أرى في هذه الابيات مجتمعة شيئا من الضعف يرجع الى قصور النهاية عن بلوغ ما يتوقعه السامع من البداية . فالسامع ينتظر بعد البيتين الاولين شيئا اكبر كثيرا من قول الشاعر :

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا

هذه مقاييس الجمال في الشعر ترجع الى موسيقاه وما يكون فيه من تصوير صادق جميل .

والمحدثون لا يستطيعون بحال من الاحوال ان يعيبوا على القدماء اسلوبهم في نقد الشعر .

وقد اهتديت او ضللت الى شيء يستقيم به تقديرنا لجمال الشعر العربي . وذلك بتقسيمه قسمين : شعر الاحتراف ، وشعر الطبع .

المتنبى

غلبت على المتنبى عاطفتان ملكتا عليه عقله وقلبه وجهده ، حب المال وحب المجد ، وحار بين الأمرين أيهما أعز عليـــه . وزاد من قسوتهما أنه لم تكن لديه عاطفة أخرى تعزيه عنهما حين أحس أنهما افلتتا من يده ، بعد أن ظن أنه منهما قاب قوسين . وكانت به كفاية واحدة هى جودة شعره ، فأراد أن يبلغ بتفوقه فى الشـــعر الثراء والمجد . والمأساة الكبرى فى حياة المتنبى انه حاول المستحيل ، اذ لم يحدث لشاعر قبله أو بعده أن بلغ بالشعر وحده الثراء الذى كان يرجوه ، أو الجاه العريض الذى كان يؤمله .

ولا يعنينى أن أترجم لحياة المتنبى ولا أن اشرح خلقـــه ، وهل كان حقا من رجال الخيل والسيف أم كانت همته عن ذلك اقصر . وانما يعنينى أن أحلل ما فى شعره من ظواهر تدعو الى التســـاؤل ؛ وأن أبين علاقة ذلك بحاله النفسية ، سر هذه الحال النفسية عنـــد المتنبى ما يصح أن نسميه الأمـــانى المعوقة (بفتح الواو) وهى غير الأمانى الخائبة ، فان هذه ينتهى أثرها بانقطاع كل أمل فى تحقيقها . اما الأمانى المعوقة فتظل فى أعماق النفس تؤثر فيها ، فصاحبهـــا

لا يفتأ يسعى الى تحقيقها ، محاولا ان يقنع نفســـه انه يستطيع التغلب على هذه العوائق متى شاء .

نظرية الامانى المعــوقة معروفــة فى التحليل النفسى ، وبعض العلماء يفسرون بهذه النظرية التصرفات الغريبة التى يقوم بها بعض الناس ــ عن غير وعى منهم ــ واكثر الامثلة تتعلق بالحب المعوق . من ذلك ان الرجل يكون على موعد ما ، ولديه متسع من الوقت ، ثم تراه يتلكأ فى سيره حتى اذا لم يبق على موعده الا وقت قصير هرول ، فيصل فى موعده تماما . فاذا سألته قال انه كان لديه وقت طويل . اما التحليل فيدل على انه اراد ان يقنع نفسه انه يستطيع ان يصل فى موعده متى شاء ومهما تكن العوائق . وكذلك قد ترى رجلا يسير فى طريقه ، يتخطى كل عقبة ، وبوسعه ان يتفاداها . فاذا سألته لم يحر جوابا ، او لعله لم يخطر بباله انه يفعل ذلك حقا . على حين ان التحليل يدل على انه يرضى نفسه باظهار قدرته على التغلب على كل العوائق . ومن الناس من لا يضع قدمه على الفاصل الذى يقع بين حجرين فى افريز الشارع . وسبب ذلك اعمق مما يظن . فقد يدل على انه تخطى حدود العرف ، وابى ان يستمع الى نصح الناصحين ثم خاب امله فى ما كان يرجوه . وتكون هذه العادة الغريبة « كناية نفســـية » ــ ان صح هذا التعبير ــ عن انه لن يعود الى مثل هذا العمل .

وعندى ان نظرية الامانى المعوقة تفسر كثيرا من خصائص شعر المتنبى . ولنأخذ لذلك مثلا حرصه الشــديد على ماله . ولســنا فى حاجة الى اثبات هذا الحرص . ولم يظهر ذلك فى شــعره عندما كان فى حلب ، فان سيف الدولة اغناه من ذلك بعطاياه . ومع ذلك تراه يقول : « لا مجد فى الدنيا لمن قل ماله » . فلمــا قدم مصر ظهر حرصه على الثراء واضحا ، وتراه يقول لكافور :

أبا المسك هلْ فى الكأْس فضلٌ أناله
فإنى أُغنى منذ حين وتشربُ
إذا لم تَنُط بى ضيعةً أو ولايةً
فجودُك يكسونى وشُغلك يسلب

فى هذا البيت نرى المتنبى يعود الى حلمه القديم وهو ان يكون شعره وسيلة الى ضياع تدر عليـــه المال . ولعله نسى ان كافور لا يشبه سيف الدولة ، وانه لا يطرب لشـــعره كما كان يطرب امير حلب . ولما خرج من مصر قال :

جودُ الرجال من الأَيدى ، وجودُهم
من اللِّسانِ ، فلا كانوا ولا الجود

والمعجبون بالمتنبى لا يفوتهم أن هذا البيت ليس مدحا للكـرم ولا للكريم ، وانما هو استجداء محض .

ولنتحدث عن المجد الذى سعى اليـــه المتنبى ، وهو حـديث طويل . ولا ادرى على وجه التحديد ما كان يعنيه الشـــعراء حين يتحدثون عن المجد والعـــلا ، ولم افهم بالضبط ما جاء فى لاميـة الطغرائى وهى القصـــيدة التى نالت من الشـــهرة اكثر كثيرا مما تستحق ــ حيث يقول :

إن العُلَا حدثتنى وهى صادقةٌ
فيما تحدث أن العزَّ فى النقل
لو كان فى شَرفِ المأْوى بلوغُ مُنًى
لم تبرحْ الشمسُ يومًا دَارةَ الحمل

ويقول المتنبى :

فسرتُ إليك فى طلب المعالى وصارسواى فى طَلَبِ المعاش

كان المتنبى يريد مجـــدا كالذى يتمتع به الملوك والأمراء . ولو اراد بلوغ المجد الادبى وحده لاغناه ما حازه من شـــهرة بين الادباء والشعراء . ولكنه كان طموحا الى مجـــد من نوع آخر ، وقد اشرنا من قبل الى بيته المعروف :

فلامَجدَ فى الدُّنْيَا لمن قلّ مالُه ولامَال فى الدُّنيا لمن قلّ مجدُه

الشطر الثانى يوحى الينا ان من اغراض سعيه الى المجـــد ان يكون ذا ثراء واسع فتتحقق بذلك كلتا امنيتيه .

ولما اتصل بسيف الدولة العـــربى القح ظن انه سيجد عنـــــده ضالتيه . واعجب الامير بشعره ، واعجبه ان يكون فى بلاطه شـــاعر قد يشـيد بذكره ، وغفر له أخطاءه وقربه منه ، ورفعه فوق رجال الدولة من القواد والابطال . فلما طال بهما العهد اخذ المتنبى يفخر بشجاعته واقدامه ، كأنما كانت له يد فى المعارك التى انتصر فيهـــا سيف الدولة . والأمراء لا يعجبهم ان يشاركهم فى الفخـــر بالنصر غيرهم . ولما اسرف المتنبى فى ذلك فتر ما بينـــــه وبين الامير . ثم اخلقت جدة هذا الشعر ، وضعف سحره على الامير فأحس المتنبى ان منزلته لم تعد كما كانت . واراد ان يسترد مكانته عنـــد الامير ، واخطأ سبيله الى قلب سيف الدولة ، وعمد الى غروره القـــديم ، معتمدا فى ذلك على تفوقه فى الشيـــــعر ، فزاد فتور الامير نحوه من جراء ذلك الغـــــرور . وارد ان يستميله بالطعن فى غيره من رجال الدولة ، فزاد ذلك من حنق بطانة الامير عليه ، ولم ينصره سـيف الدولة على اعدائه وحساده . فاستجدى عطف الامير ، معللا ذلك باحسان هذا اليه ، والاحسان قيـــد مرغوب فيه اذا كان من قبل

امير كسيف الدولة . ولم يجده كل هذا شيئا وظل الأمير يظهـــر عـدم الرضى عنـه .

مرت العلاقة بين سيف الدولة والمتنبى بأطوار مختلفة نستطيع ان نتتبعها ـ نفسيا لا زمنيا ـ فى قصائده . بدأ بمدحه مدحا خالصا كما جـاء فى قوله :

يغيرك راعيًا عَبث الذئـــابُ وغيرك صارما ثلمَ الضراب

ثم فخر المتنبى بنفسه حيث يقول :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنى والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقَلَمُ

فلما أحس بأن ذلك لا يرضى الأمير خفف من غلوائه ولكنه ظل واثقا بعطفه فيقول :

إذا شاء أن يلهُو بلحيةِ أحمقٍ أراه غباوَتى ، ثم قال له الحق

ثم راى بعد ذلك ان يقصر فخره على الشعر وحده حيث يقول :

وما الدَّهر إلا من رواة قصـــائدى
إذا قلتُ شعرًا كان لى الدهرُ منشدا

ويقولَ من قصالده :

أنام ملء جفونى عن شوارِدِها
ويسهرُ الخلق جَرّاهَا ويختصم

ويقول :

أنا الذى نَظَرَ الأعمى إلى أدبى

وأسمعتْ كلماتى من به صمَمُ

ولما رأى أن سيف الدولة لم يعطف عليه كل العطف زاد غضبه على هذه الحال فقال :

فإن عَتْبك محمودٌ عواقبُـــه

وربما صحّت الأجسامُ بالعلل

فلما يئس من عطف الامير عليه قال :

حتى رجعتُ وأقلامى قوائل لى

المجدُ للسيفِ ليس المجدُ للقلم

وبلغ غاية اليأس حيث يقول :

للمجدُ أخسرُ والمكارمُ صفقـــةً

من أن يعيش بهـــا الكريمُ الأروعُ

وبرح به اليأس حتى كره الناس جميعا وقال بيته العجيب :

ومن عرفَ الأيامَ معرفتى بها

من النّاس روّى رمحه غيرَ راحم

ولنذكر هنا انه اعتذر عن صحبة سيف الدولة فى احدى معاركه بما ذكره من حاجته الى ان يعود الى عياله وذلك حيث يقول :

إن الذى خلفتُ خلفى ضائعٌ   مالِى على قلقى إليه خيارُ
وإذا صحبت فكلُّ ماءٍ مشربٌ   لولا العيالُ ، وكل أرضٍ دار
إذن الأمير بأن أعود إليهم   صلةٌ تسير بشكرها الأشعار

فهل اراد سيف الدولة ان يمتحنـــه بدعوته الى مصاحبته فى هذه المعارك فلم يجد عنده من الشجاعة والاقدام ما كان يتغنى به فى اشعاره . ولنذكر أن مثل هذا الحادث جرى له مع بدر بن عمار . والمتنبى فى هاتين الحادثتين اظهر انه ليس من اهل الخيل والبيداء والسيف والرمح . ولم يكن ذلك مما يزيد فى اعجاب الأمراء به .

ولعله كان يصف نفسه حين قال :

غيْرِى بأكثر هذا النّاس ينخدع
إن قاتلوا جَبُنوا أوحدّثوا شجعوا

وعلينا ان نفسر الدوافع العميقة التى حملته على وصف المعارك الحربية وصفا فيه شناعة غير معهودة . فنراه يقول :

يطمّع الطير فيهم طول أكلِهمُ
حتى تكادَ على أحيائهم تقعُ

ويصعب على الانسان ان يتصور شاعرا مرهف الحس تخطر بباله صورة فيها ما فى هذا البيت من فظاعة تشمئز منها النفس ، وهو القائل :

إذا سلك السماوةَ غير هادٍ   فقتلاهُمْ لعينيه منارُ

وهو القــائل :

فأرهقتُ العذارى مردفات   وأوطئتُ الأصيبحة الصغار

ومن العجيب أن يقول المتنبى بيتــا فيه من ضعف النظم ما فى قــوله :

للسبى ما نكحوا والقتلِ ماولدوا

والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

فما سر هذه المبالغات فى وصف القتــلى . ظاهر هذا الأمر انه يصف ما رآه فى هذه المعارك . وعنــدى انه كان فى غنى عن هــــذه الصور المزعجة . الا يمكن أن يكون ذلك نوعا من الامانى المعوقة كأنه كان يتمنى أن يكون هو الذى فتك بهؤلاء القتلى . ومن هنــــا يكون حنقه على القتلى ذلك الحنق الشديد . ثم الا يمكن أن يكون خطــر بباله أنه لو كان له فضل فى قتلهم لنال بهذا الاقدام مجــــدا كالذى بلغه الفرسان بأقدامهم وشجاعتهم .

قد نلتمس للمتنبى بعض العذر فى ما صوره لنا من حال القتلى تأكلهم الطير ، ومن حال الصبية الصغار تدوسهم الخيل ، فهذا كله كان سنة العصور القديمة ـ بل هى مالوفة حتى فى العصور الحديثة التى تدعى الإنسانيــة والحضــــارة ـ وكان المنتصرون يفتنون فى القســوة على المهزومين يفعلون بهم ما يشاءون . هذا النــــوع من هستيريا الحرب يبيح للناس الوانا من التعذيب لا يطيقهــا الا أقسى الناس قلبا . وكنت أربا بالشعراء أن ينزلقوا الى ما يقع فيه عامــة الناس الذين يستعذبون التمثيل بقتلى أعدائهم .

ولكنى أود أن أقف قليلا عند بيت السماوة . ولى رأى فيــه لا أعتقد أنه بعيد كل البعد عن الصواب . ذلك انى أريد أن أستعير من علماء التحليل النفسى بعض مذهبهم فى تفسير الأحلام . وعندى أن بعض قول المتنبى فى المجــد ووصفه للحرب كان نوعا من أحــلام

اليقظة ، وهى أكثر انتشارا واقل خطرا،وارضى للنفس من الاماني المعوقة . والبيت فى جملته يشير الى أن من يسلك السماوة وهو ضال يجد قتلى الاعداء منارا لعينيه يهتدى به فى هذا المسلك الصعب ، فاذا قدرنا أن سلوك السماوة انما هو كناية عن رحلة الحياة وانها كانت صعبة عليه ، فهو يحلم أنه لو اهتدى فى رحلته هذه بالتفرغ لقتل الأعداء فى حروب ضارية لكان ذلك هاديا ينير له طريق النجاح فى ما كان يرجوه من مجد . واذا ظن القارىء أن هذا اسراف فليذكر أن التحليل النفسى قد يرى فى حلم واحد مفتاح شخصية المريض ،وأن ذلك قد يكون اول الطريق لعلاجه من الحالات النفسية الغامضة المستعصية .

ولنا أن نتساءل لماذا كثر التعقيد فى مطالع قصائد المتنبى ، وكيف رضى أن يقول :

كيفَ ترثى التى تَرى كلُّ جَفْنٍ راحها غير جفنها غير راقِ

والشطر الثانى سيء التركيب ، سيء النظم ، ولم يكن به حاجة الى الاحتفاظ به . وكيف رضى أن يقول :

وفاؤُكما كالربع أسجاهُ طاسمهْ
بأَن تسعدا ، والدمع أسفاه ساجمه[1]

ولو سألنا المتنبى عن الدافع له على مثل هذا القول لقال انه اراد ان يتعب سامعيه وأن يحملهم على البحث فى معناه . أليس هو القائل عن قصائده :

---

(١) اراد المتنبى ان يقول وفاؤكم لى حين تعاهدتم أن تسعدونى اندثر كما يندثر الربع ، وان ذلك زاد فى حزنه كما تزيد الاطلال فى شجون المحب وكما يشفى الدمع المحب حين يبكى على من فقدهم . والمعنى كما يرى القارىء معقد وفيه التواء لا يتفق مع المعنى الهزيل الذى اراده .

أنامُ ملءَ جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وقد نرى ذلك عند غيره من الادباء حيث يجيء التعقيد عرضا ، اما المتنبي فالتعقيد في شعره اعمق من ان يكون قد جاء عرضا .

وخلاصة القول أن التعقيد في شعر المتنبي جاء أقله من اثر حرصه ، اما اكثره فمرجعه الى اخفاقه في بلوغ المجد الذي اراده ، فكانت هذه الاماني الموقة هي السبب العميق في ما جاء في شعره من تعقيد واغراب .

المتنبى فى مصر

لم يفت المتنبى حين هجر سيف الدولة انه يفارق احب الناس له واحبهم اليه ، وله فى هذا قول مفعم بالحزن والأسى والندم :

عشيةَ أحْفَى الناسِ بى من جفوتُه
وأهدى الطريقين التى أتجنب

ولم يفته ان كافورا لن يحيطه بما كان يلقاه عند سيف الدولة من تقدير واعجاب ، ومع ذلك فان شعره فى مصر كان من خير شعره كله ، ظهرت فيه خصائص لم نعهدها فى اجود شعره قبل ذلك ؛ نراه يطرب حين يرى النساء الجميلات خارجات من الحمام مائلة اعطافهن صقيلات العراقيب ، وكان من قبل لا يراهن الا بعينى شعراء الاحتراف ، وفى غزلهم برود . حتى حين يكون فيه حسن صنعة والتيح . ونراه يندم على ما فرط فى حق نفسه حين فضل معانقة السيوف على معانقة الغيد .

ولم نعهد فى قصائد المتنبى السابقة انه طرب لمجالس اللهو والقيان ، ولا نريد أن نشهد عليه بشرب الخمر ، ولكنه يتساءل

لماذا لا تطربه الخمر ، وهل فى كئوسها هم وتسهيد ، كل هذا جديد على المتنبى الذى ظل طول حياته يعمل للعلا والمجد عملا كله جد .

وفى مصر عرف المتنبى لونا من الشعر جديدا عليه ، وهو التهكم والاستهزاء حتى بكافور نفسه ، وان كان قد اصطنع الاخلاص ، والاعجاب به تحت ثوب من الرياء لا اظنه خفى على هذا الامير . ولعله لم يخلص فى الاعجاب بكافور الا حين وصفه بالمهارة السياسية .

وطعن فى المصريين طعنا مرا فى عدة مواضع ، وندد بريائهم حين يقولون لكافور انه بدر الدجى . وعجب كيف ترضى امة عزيزة ان يتولى أمرها كل من قتل سيده غيلة . وعاب عليهم جهلهم بالاسلام حتى حسبوا ان غاية الدين أن يحفوا شواربهم ثم قال قصيدته المعروفة التى وصف فيها ما يحدث فى مصر انه يضحك ولكنه ضحك كالبكى . فى كل هذا تحليل دقيق ووصف صادق للمجتمع المصرى حينذاك . ويدل على ذكاء نافذ ، يختلف تمام الاختلاف عن أقواله فى الحكم التى يزخر بها الديوان .

وسنضرب الأمثلة على ما قدمناه من تحليل لهذا الشعر .
والنظر فى قصيدته الشهيرة :

من الجآذر فى زى الأعاريبِ
حُمر الحُلى والمطايا والجلابيبِ

إن كنتَ تسألُ شكًّا فى معارفها
فمن بلاك بتسهيد وتعذيب

ويقول فيهـا :

أزورهمْ وسوادُ الليل يشفع لى
وأنثنى وبياضُ الصُّبح يغرى بى .

هذه القصيدة من أجمل ما فى الشعر العربى ، بلغ فيها المتنبى الذروة ، ولا ينكر ذلك أحـد ممن دربوا على تذوق هذا النـوع من الشعر ، والذين لهم أقل المام بجمال الشـعر العربى يطربون لهذه الأبيات الرائعة . مع أن ما قيل فيها مألوف عنـد كثيرين غيره ، وامتيازها كله فى صياغتها الجميلة . ولكن ماذا فيها من واقع خبرته فى مصر ؟ ليس فيها وصف لما رآه فعلا عند المصريات . فقوله انهن سبب ما يلقاه من هم وتعذيب قول سبقه اليه أكثر الشـعراء . اما قوله أنه يزورهن والليل يشفع له ، ويتركهن والصبح يغـرى به الرقباء فقول بدوى كالذى رأيناه فى شعر امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة ، ولا اظن أن المتنبى كانت له مغامرات من هذا النـوع ويقـول :

ما أوجُه الحضر المستحسناتِ به
كأوجُهِ البدوياتِ الرعـابيب
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ
وفى البداوةِ حسنٌ غير مجلوب

والبيت الأخير من أدق ما قيل فى التفريق بين الجمال البدوى والجمال الحضرى ، وليس عجيبا أن يفضل المتنبى البدويات على نساء الحضر . وهو يعيب على هؤلاء أنهن يمضغن كلامهن ويصبغن حواجبهن ، ويخرجن من الحمام مائلة أعطافهن .

ولا بَرَزْنَ من الحمـــــام مائلةً
أعطافُهن صقيـــلاتُ المراقيب

وفيه دليل على انه رأى النساء الجميلات فى مصر وأدهشـــه ما ظهر من جمالهن . ولا تزال القرويات فى مصر يحرصن على صقل مراقيبهن حتى تبدو ناعمة وردية اللون . وطرب المتنبى لذلك الى حد ما ، واعجبه أن يراهن مائلات الاعطاف يخطرن فى رشـــاقة اعجبته ، ولكنه أسرع يفضل عليهن البدويات .

ونراه يذكر كذلك جمال المصريات فى قصيدته المشـــهورة التى اولهـــا :

عيدٌ بأيّة حـــال عدتَ ياعيدُ
بما مضَى أم لأمر فيك تجديد

ولاول مرة نجد المتنبى يندم الى حد ما على تفضيله المجد والعلا على بهجة السرور بمعانقة الغيد الأماليد . واعجابه بالقادة الأماجد يدل على أنه تأثر بجمال الحضريات ولين أجسامهن دون عبـــالة مسرفة كالتى كان يعجب بها أكثر شعراء البادية .

ونراه يقول فى هذه القصيدة :

لم يتركْ الدهرُ من قلبى ولا كَبِدى
شيئًا تُتَيمه عينٌ ولا جيـــــد
أساقِيَّ أخمرٌ فى كئوسكـــمَا
أم فى كُئوسكما همٌ وتسهيـــدُ
أصخرةٌ أنا مالى لا تحـــــركنى
هذى المدامُ ولا هذى الأغاريد

واحسب أن بعض أصدقائه حملوه على ان يغشى مجالس اللهو والعبث والغناء واحسب أنه طرب لهذا طربا معتدلا مشوبا بالنـــدم على ما فاته ، وأسف على أنه لم يعـد قادرا على أن يطرب لهـذا السرور الطرب كله .

هذه الأبيات تدل على أن تغيرا تاما حدث فى احساس المتنبى بجمال النساء ومجالس اللهو ، ولكن كان ذلك بقدر ، لانه لم يجـد فى حياته الماضية وآماله الضائعـــة ما يسمح له بالسرور الكامل الخالص بهذه اللذات ، وظل منها بعيدا رغم قربه منها . ولم يشارك أهلها الا مشاركة محدودة بما كان فيه من وقار وجد .

ومن خصائص شـــعره فى مصر ما كان من تهـكم وهى صفة لا نراها فى شعر المتنبى فى غير هذا العهد . والتهكم فى شعر المتنبى له تطور واضح فقد بداه خائفا وجلا يحاذر أن يدرك كافور أن مديحه له لا يخلو من اســـتهزاء خفى ثم رأى انه ليس أمام سيف الدولة الاديب اللبق الخبير بمواقع الكلام فتهكم صراحة ، ولا أشك أنه كان يضحك ملء شدقيه حين يخلو الى نفســـه فيذكر كيف خفى على سامعيه ما فى مديحه لكافور من سخرية ، ثم أصبح تهكمـه جدا ؟ يكاد يكون أقرب الى الذم ، ثم اشتدت مرارة نفســـه وحنقـه ؟ واصبح التهكم مريرا مؤلما وذلك قبل أن يندفع المتنبى فى هجو كافور الهجو الذى نعرفه .

ولم يمدح المتنبى كافورا مدحا خاليا من التهكم الا حين وصفه بحسن السياسة فى مثل قوله :

إذا مَنعتْ منك السياسةُ نفسها
فقيفٌ وقفةً قُدامه تتعلـــــــم

وفى قوله :

وإرادته أنفس حال تدبيرك ما بينها وبين المراد

أما مدحه لكافور فى غير السياسة فلا يخلو من التهـــكم على صورة من الصور التى ذكرناها .

فمن التهكم الخفى كل ما جاء فى تفضيل الســواد على البياض مثل قوله :

فجاءتْ بنا إنسان عينِ زمانِه
وخلَّتْ بياضًا حولها ومآقيــا

وقوله :

إن فى ثوبكَ الذى المجد فيه
لضياء يفوق كل ضيـــاء
إنما الجلد ملبسٌ وابيضاضُ الـ
ـشمس خيرٌ من ابيضاض القباء

ومن التهكم الصريح ذكره الشمس السوداء ــ وهذه لا تكون الا تهكما فى قوله :

تَفْضَحُ الشمس كلما ذَرَّتْ الشـ
ـمسُ بشمسٍ منيرة ســـوداء

ومنه ذكر قلوب النساء فى معرض مدح كافور فى قوله :

إنما يَفْخَرُ الكريمُ أبو المسـ ـكِ بما يبتنى من العلياء

وبما أثرتْ صوارمهُ البيـ ـضُ فى جماجم الأعداء
لا بما تبتنى الحواضرُ فى الريفِ وما يطّبى قلوبَ النساء

ومن التهكم الجدى ما هو اشبه بالذم مثل قوله :

ولله سرٌ فى علاكَ وإنمــا كلامُ العدا ضربٌ من الهذيانِ

وقوله :

مُجرَّبـاً فَهِمَا من قبل تجربة مهذَّباً كرماً من غير تهذيب

أما التهكم المملوء مرارة وحنقا فظاهر فى قوله :

أبا المسك ذا الوجهِ الذى كنتُ تـائقًا
إليه ، وذا الوقت الذى كنت راجيا

ولا تجد فى شعر المتنبى تهكما الا فى هذا العهد من حياته ، وهو نوع من القول نادر فى الشعر العربى على اية حال . وبعض هــذا التهكم فيه فكاهة بقدر ما يستطيع المتنبى من مرح ، والغلبه فيه من المرارة والجد ما هو اشبه بطبع ابى الطيب .

ولا اريد الاطــالة فى ما قال المتنبى فى مصر والمصريين ، واكثرنا يحفظ ذلك القول ويعجب به . وليس صحيحا ما يقال اننا لم نغفر له ما قال فى المصريين . والأمر على عكس ذلك تماما ، فهذا الشعر فيه تحليل دقيق لحال مصر السياسية والاجتماعية فى ذلك العهد .

واليك قليلا مما قيل فينا :

أكُلّما اغتالَ عبدُ السُّوء سيِّدَه
وخانَه ، فله فى مصرَ تمجيدُ؟

نامتْ نواطيرُ مصر عن ثعالبها
فقد بَشِمْنَ وَما تَفْنَى العناقيد

صار الخصى إمام الآبقين بها
فالحرُ مستعبدٌ والعبدُ معبود

أغاية الدِّين أن تحفوا شواربكم
يا أمةً ضحكت من جهلها الأمم

سادات كلِّ إناس من نفوسهم
وسادة المسلمين الأعبد القزم

وأسود مِشْفَره نصفـــه
يقال له أنت بدرُ الدجى

ونراه يحرض المصريين على الثورة على هذا الأســود القزم فيقــول:

وقد ضلَّ قومٌ بأصنامهــم
وأما بذق رياح فــــلا

ألا فتى يورد الهندى هامته
كيما تزول شكوكُ الناس والتهم

هذا شعر جيد ممتاز ، ولم نعهده عند الكثيرين من الشـــعراء السابقين . ولم يكن قوله هذا مقصورا على المديح البحت او الهجر اللاذع ، وانما كان فيه تحليل جيد لمجتمع اسلامى لا يتفق مع عزة المسلمين الذين كانوا تحت امرة سيف الدولة،وغضب على المسلمين غضبا شـــديدا مخلصا . وأبت عليه عربيته أن يذل المسلمون لمثل كافور ، ولو أدى ذلك الى مجد الدولة وعلو شأنها ورخائها .

الحكمة فى شعر المتنبى

شهر المتنبى بكثرة ما جاء فى شعره من الحكم والاقوال المأثورة التى سارت فى الناس مجرى الامثال . ولا اعرف شاعرا آخر يستشهد الناس بشعره حين يحزبهم امر كما يستشهدون بشعر المتنبى . وله قدرة عجيبة على تحويل خبرته الشخصية الى خبرة انسانية عامة . ولا غبار على ذلك ، بل قد تكون غاية الادب ، بل غاية الفنون كلها أن يستخلص رجل الفن عبرا شاملة من خبرة شخصية فردية صادقة .

الحكمة والامثال معروفة عند جميع الامم ، وكثيرا ما تدل على اعماق نفوس الجماعات ، وهى تكثر بصفة خاصة فى الامم القديمة . واكثرها يقوم على قوة فى تركيز مشاعر الناس واحساساتهم ، حتى تتبلور فى صيغ قصيرة لتؤثر فى السامعين تأثيرا قويا حتى يحسبوها من الحقائق المقررة او القوانين الاجتماعية الثابتة .

ثم يتقدم الزمن بالادب والفنون ويخرج رجالها من طور التركيز والبلورة الى عهد التحليل لهذه الاحساسات والمشاعر

التى تعتريهم فى المواقف المختلفة ، وهذه سمة الأدب فى العصر الحديث . فاكثره تحليلى وان تعددت المذاهب واختلفت الاساليب .

كان العرب يفخرون منذ القدم بما فى كلامهم من حكمة وامثال، وظنوا أنهم تفوقوا على كل الامم بهذه القدرة ، ولعلهم حسبوا أن ذلك ارفع انواع الادب .

وسانقف قليلا عند قصة وفود العرب على كسرى كما رواها صاحب العقد الفريد . والظاهر ان احدا من رجال كسرى نال من العرب وغض من قدرهم ، وعاب عليهم انهم ليسوا اهل حضارة او ثقافة . وأراد النعمان ان يبعث الى كسرى رجالا من العرب فيهم حكمة وثقافة . وكان على رأسهم حكيم العرب اكثم بن صيفى . فلما مثلت الوفود أمام كسرى تكلم اكثم فقال : افضل الخطباء اصدقهم . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة . وسوء الظن عصمة . اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعى . شر الملوك من خافه البرىء . خير الاعوان من لم يراء بالنصيحة . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه . البلاغة الايجاز .

ورد عليه كسرى فقال : ويحك يا اكثم ! ما احكمك واوثق كلامك لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ! قال اكثم : الصدق ينبى عنك لا الوعيد ، قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ، قال اكثم : رب قول انفذ من صول .

كانت مقالة اكثم حكما متناثرة لا يربط بينها شىء . ومع اننا لا نستطيع ان نثق ان ما جاء فى كتب الادب هو ما قاله اكثم نصا فان لنا ان نفرض انه كان يعرض على كسرى ارقى انواع الثقافة العربية حينذاك ممثلة فى حكمها وامثالها . وكنت اشك كثيرا فى

هذه المقالات ظنا منى انها من اختراع الادباء المتاخرين . على ان هناك عبارة وردت في قصة هذه الوفود تدل على ان شيئا من ذلك وقع فعلا حيث قال كسرى « ويحك يا اكثم .. » ! هـــذه الملاحظة صحيحة ولا اظن أن اديبا يخترع قصة الوفود هذه ثم يغض من قدر الحكمة العربية بمثل هذه الملاحظة الدقيقة الواردة على لسان كسرى .

وروى العقد الفريد قصة عجيبة عن حاجب ابن زرارة حين وفد على كسرى ، فارسل كسرى من يسأله هل هو سيد العرب فقال لا . فلما اذن له بالدخول اليه سأله من انت قال حاجب : انا سيد العرب . فقال كسرى ألم تقل انك لست سيدا ؟ قال حاجب: « لم اكن كذلك حتى دخلت عليك ، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب » . قال كسرى املئوا فاه درا . هذا مثل آخر على تقدير العرب للكلمة الزكية والقول الجميل . ولا احسب ان كسرى كان يتقن اللغة العربية اتقانا يسمح له بتذوق جمال هـذه الحـكم ، ولا اظن انه قدر دقة تعبيرها عن خبرة قائليها ، ولا اخال ثقافته حملته على الاعجاب بمثل هـذه الكلمة الزكيـة التى كان العرب يعدونها غاية البلاغة ، ولعل اميرا عربيا من خاصة بطانته شرح له غوامض تلك العبارات المركزة . ولا احسب ان كسرى اعجب بما فعله حاجب بن زرارة ، فهذا شيء يطرب له العربى لما فى فعلته هذه من دليل على الذكاء ، ولا اظن أن كسرى اعجب به الى حد الامر بان يملئوا فاه درا ولو كان ذلك من قبيل المجاز .

كان العرب يفخرون بكثرة الحكمة والامثال فى كلامهم ، ولعله كان جماع ثثرهم لقصر عباراتها وسهولة حفظها فى عهد كان التدوين فيه قليلا ، وشهرة الحكم فى هذا تشبه الى حد كبير شهرة الشعر فى ذلك العصر . ولم يتح للعرب التحليل المطول لاهداف الحيـاة لحاجة هذا النوع من النثر الى التدوين . وليس عجيبا أن تكون

الحكم دروسا وعبرا وتحذيرا للناس من ان يقعوا فى محظوراتوقع فيها من قبلهم . والناس حين يتحدثون عن الخبرة يعنون فى اغلب الحالات اخفاقهم فى الأمور التى يحذرون النـــاس منهـــا . وقليل من الحكم ما يكون الحديث فيه عن خبرة ناجحة . هـــذا امر معروف فى جميع الامثال قديمها وحديثها عند العرب وعند غير العرب ، ولكنها فى العربى اكثر ، وامهات كتب الأدب العربيةمحشوة بحكم كثيرة جدا ، ينسبون بعضها الى الهند أو فارس أو اليونان ، وكثيرا ما كانوا يروون عن فلاسفة الاغريق وحكماء غيرهم من البلاد اقوالا لا يمكن أن تكون نسبتها الى اصحابها صحيحة . وكثير من الحكم مسجوع سجعا مصنعا ، تتوالى فيه العبارات متشـــابهة منمقة . ونسبوا الكثير من الحكم الى على بن ابى طالب ، لا يريدون بذلك ان يكذبوا عليه ولكنهم كانوا يرون ان الحكمة الرائعة خليقة أن يقولها رجل فى الذروة من الحكمة والبلاغة . وتكون نسبتها اليه صحيحة لروعتها وان لم يكن قالها فعلا .

على أن الأقوال الحكيمة والأمثال الرائعة لم تكن كلهـــا على وتيرة واحدة من حيث دلالتها على خبرة قائلها وسنقصر بحثنا على الحكمة فى اشعار المتنبى ، ولكن لا بد لنا أن نقارنها بالحكمة عند غيره لنتبين صفاتها الخاصة .

ولنبدأ بالحكمة عند زهير بن ابى سلمى ، وكلنا نحفظها ونعجب بها ، من ذلك قوله :

ومن يَكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِه

على قومِه يستغن عنه ويلبم

هذا البيت يعبر عن خبرة لزهير تبينها فى غيره من افاضـــل الناس . ولا يمكن أن يكون قد اراد بذلك نفسه . فهى موضوعية خالصة . وكذلك قوله :

ومن لم يصانِعْ فى أمورٍ كثيرةٍ
يُضَرَّسْ بأَنيابٍ ويوطأْ بِمِنْسَمِ

هذه ايضا حكمة خالصة ، وليس من المعقول أن يكون زهير أراد ان يصف نفسه بالمصانعة ، وهى غالبا تصـــدر عن جبن واحجام . ولكنه رأى غيره يقدم فى غير موضع الاقدام فيصيبه من تلك الكبرياء شر كثير ، وكذلك قوله :

ومهمَا تكنْ عند امرىء من خليقة
وإن خَالها تَخفَى على النَّاس تُعْلَمِ

هذه حكمة رائعة خالصة ، تدل على عمق فى تحليل نفوس الذين يظنون انهم يستطيعون خداع الناس باخفاء نقائصهم ، فلا يكون نصيبهم من ذلك الا اظهارها بصورة أوضح ، وليس من المعقول ان يكون زهير فكر فى نفسه حين قال ذلك البيت العظيم .

ومن الحكم التى تدل على صـدق الملاحظة ودقة الحس دون ان تكون فى ذلك اشارة من قريب او بعيد الى الشاعر نفسه قول ابى نواس :

إذا امتحنَ الدُّنْيا لبيبٌ تكشَّفتْ
لَهُ عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

وسنبين فيما بعد الفرق بين الموضـوعية فى بيت ابى نواس وبين الحنق والغضب على الناس فى بيت المتنبى حيث يقول :

ومن عرفَ الأَيَّامَ معرفَتِى بِها
من النَّاسِ رَوَّى رُمْحهُ غيرَ راحم

لم يستطع المتنبى فى اى عهد من عهود حياته أن ينسى نفسه ، وهى أبدا محور تفكيره ، وهذا النوع من الشخصيات معروف جدا عند علماء النفس . بهذا لا يكون من الصعب أن نتبين فى حكمة الحالات النفسية التى مر بها . وليست الحكمة كثيرة فى شعر المتنبى حين كان عالى الآمال ، يسعى الى المال والمجد . ولم يكن قد أخفق فى بلوغ هذه الامال اخفاقا يملى عليه الخبرة التى ظهرت فى شعره فى ما بعد .

فى عهده الأول نراه يقول :

فسرتُ إليك فى طلب المعالى

ومار سواى فى طلب المعاش

وهو الذى يقول :

تريدين لقيان المعالى رخيصةً

ولا بدَّ دون الشُّهد من إبَر النحل

وليس عجيبا أن تكون حكمته فى ذلك العهد حكمة خالصة فهو يقول مثلا :

وخَيْرُ مكان فى الدُّنى سرجُ سابحٍ

وخَير جليسٍ فى الزَّمان كتاب

ونراه يقولَ :

كل ما كان من الصعب فى الأنفس

سهلٌ فيها إذا هو كـــان

ونحن نرى فى هذا القول حكمة بسيطة سهلة مؤملة خيرا فى الدنيا وفى الناس . فلما تعسر فى بلوغ آماله نسب ذلك الى الزمن والناس اذ هم حرب على الافاضل ، ولا ينجو من مكائدهم الا من قلت فطنته . وهو عذر يلتمسه كل انسان حين يرى آماله تفلت من قبضة يده وهو يقول فى ذلك :

أفاضِلُ الناس أغراضٌ لذا الزَّمن
يخلُو من الهمِ أخلاهُمْ من الفِطنِ

فلما بعد ما بينه وبين آماله قال فى ذلك :

لولا المشقةُ سادَ الناس كلُّهم
الجودُ يُفقر والإقدامُ قتّالُ

وسنقف عند هذا البيت قليلا . ذلك ان ظاهره مدح يشيد فيه بجود الممدوح واقدامه على المخاطر ولو كان فيها شبح الموت . ولعل المتنبى اراد كذلك أن يبين للناس ما فى طلب المعالى من خطر، وهى حكمة خالصة موضوعية . على انى ارى انه اراد ايضا ان يعزى نفسه عن حرصه على المال وعن قصوره عن مجابهة الموت بان كلا الامرين وهما ضروريان للعلا ، لا يخلو من خطر التعرض للفقر والموت . فهى بذلك ليست حكمة خالصة وانما هى مرآة لحاله النفسية عن ما تقتضيه العلا من تضحيات . ثم فتر ما بينه وبين سيف الدولة ، وحسب المتنبى ان ذلك ليس الا عتابا ثم تعود المياه الى مجاريها . فقال فى ذلك :

فإنَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبُهُ
وربَّما صحَّتْ الأجسامُ بالعلل

وزاد فى استرضائه حيث قال :

وقيدتُ نفسى فى ذَراكَ محبةً
ومن وَجدَ الإحسانَ قَيْدًا تقيَّدا

ثم غضب الشاعر لكرامته فالتمس لنفسه عذرا فى البقاء عند سيف الدولة فقال فى ذلك :

شرُّ البلادِ مكانٌ لاصديقَ به
وشرُّ مايكسب الإنسان مايَصِمُ

الى ان قال :

وصرتُ أشكُّ فى من أصْطفيه
لِعِلْمى أنه بعضُ الأنـــام

ولمـا بلغ غاية اليأس قال فى ذلك :

المجدُ أخسر والمكارمُ صفقةٌ
من أن يعيشَ لها الكريمُ الأروعُ

* * *

لا اريد أن اترك المتنبى دون ان اشير الى اضعف نواحى شعره وهو الوصف . فالرجل لم توهب له القدرة على رؤية الاشـياء الجميلة فيطرب لها طربا يحمله على التغنى بذلك الجمال . او لعله شغل عن ذلك كله بخرافة الغنى والمجد . وسنرى أنه عندما يحاول أن يصف شيئا جميلا يفعل ذلك على مضض وتكلف واضح وانظر الى وصفه شعب بوان . ولعل هذه القصيدة اضعف ما فى ديوانه .

بدأ القصيدة بقوله :

مغانى الشِّعب طِيبًا فى المغانى

بمنزلةِ الربيع من الزمـــان

والقارىء كان يرجو ان يقول الشاعر ان الشعب فى الربيع خير منه فى اى فصل آخر كما يفعل شعراء العالم كلهم صغارهم وكبارهم ، حتى ابتذل ذلك منهم . ثم لا يجد القارىء الا تشبيها غير حسى يقول فيه ان جمال الشعب بين الشعاب كجمال الربيع بين الفصول . ويلى ذلك بيت ليس اكثره قوة من هذا البيت الأول فنراه يقول :

ملاعبُ جِنَّةٍ لو سارَ فيهـــا

سليمانُ لسار بترْجُمـــانِ

قد يكون لهذا البيت قيمة لو كان فى غير هذا الموضع . اما من حيث وصف الشعب فهو من غير شك قصور عن ادراك جماله. وكذلك قوله :

فسرتُ وقد حجبنَ الشّمس عنى

وجئنَ من الضِّياء بما كفانى

وألقى الشرقَ منها فى ثيـــابى

دنانيرًا تَفِرُّ من البنـــــان

التكلف فى هذين البيتين ظاهر ، بل لعله يكون مرذولا .

وللمتنبى قصيدة فى مدح سيف الدولة بعد أن نصره الله على الروم فارسلوا اليه رسولا وهو يقول فى ذلك عن رسول الروم :

فأقبلَ يمشى فى البساط فما دَرى
إلى البَحْرِ يسعَى أم إلى البدر يرتقى

ومدح سيف الدولة انه كالبحر والبدر كلام مبتذل لا يليق بوصف منظر رهيب كالذى كان بين رسول ملك مهزوم يتقدم الى ملك منتصر يطلب اليه التسليم والخضوع .

والصور الحسية فى ديوان المتنبى قليلة ومن السهل حصرها . من ذلك قوله يصف خيمة عليها صور حيوان :

ترى حيوانَ البَرِّ مصطلحاً بها
يحاربُ ضد ضده ويساله

إذا ضربَتْه الريحُ ماجَ كأنه
تجولُ مذاكيه وتدآى ضراغِمُه

والبيت الثانى صورة حسية اذا ضربت الريح الخيمة فكان الخيل والاسود المصورة تتحرك وهى صورة لا بأس بها

والمتنبى لا يستطيع ان يرى اى جمال فى الوصف البسيط الهادى الجميل مثل قول البحترى :

والمنسايَا مواثلٌ وأنو شروان
يُزجى الصُّفوف تحت الدرفس

وله أرجوزة يصف فيها الصيد وفيها وصف جيد ولا غرابة في ذلك . فقد قالها بعد أن اكتملت قوته في النظم . فهو يقول :

فقيدت الايل في الحبال طوع وهوق الخيل والرجال
تسير سير النعم الارسال معتمة ببيبس الاجذال
لها لحيّ سودٌ بلا سبال يصلحن للاضحاك لا الإجلال
لاتؤثر الوجه على القذال فاختلفت في وابلى نبال
من أسفل الطُود ومن معالِ
فهن يهوينَ من القِلال مقلوبَةَ الأظلافِ والأرقال[1]

ومع ذلك نراه يذكر أمورا ليست من الوصف الحسى في شيء حيث يقول عن الآيال . يصلحن للاضحاك لا الاجلال .

وعلى ذلك نرى أن المتنبى لم يكن له حظ كبير من التغنى بجمال المرئيات ، وربما لا يكون ذلك عيبا في الادباء والكتاب ولكنه من غير شك نقص في شعرية الشعراء .

---

(1) يقول ان الايائل قيدت في الحبال حتى صارت طوعا للفرسان الصائدين تسير سيرا لينا كالابل حين تكون قرونها عمامة ثقيلة عليها لكبر سنها وتاتيها النبال من فوقها ومن اسفلها كالمطر فتهوى من اعلى الجبل منحدرة على ظهورها لا على اظلافها .

أبو العلاء المعرى

كان أبو العلاء شاعرا ليس كمثله شـــاعر ، مفكرا ليس كمثله مفكر ، زاهدا ليس كمثله زاهد . وكان مظلوما كما لم يظلم أحد من مفكرى العرب ، كان فريدا فى الحضارة العربية كلهـا ، ولم يتبـع طريق شعراء الاحتراف الا فى قصيدة قالها فى شبابه :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل

عفاف وإقـدام وحزم ونائل

هذا القول ابعد الأشياء عن نفسه ، وانما قاله فى شبابه اظهارا لقـدرته على مجـــاراة غيره من المبصرين ، كما كان يلعب النـرد والشطرنج ، ولعله ندم على هذا المقال بعد أن تحددت شخصيته . وكيف كان له أن يفخر بالجود وهو فقير ،وبالمجد وهو زاهد ، فهذا كله من عبث الشباب وليس لنا أن نعيبه عليه .

كان ابو العلاء المعـــرى اقوى رجال الأدب العربى شخصية ، واعمقهم تفكيرا ، وهو أصدقهم عاطفة واحـدهم ذكاء ، لا نستثنى من ذلك أحدا . فى حيـاته صرامة ، وفى عقيـدته جد . ثم ان فى

احساسه رقة وفى آرائه جراة لا عهد لنا بها فى غيره من اكبار الكتاب العرب . فالجاحظ على علو قدره فى الأدب والتفكير ، كان لا يحجم من الدفاع عن المتناقضات ، ويسوق على ذلك حججا يظنها قوية ، على غير اقتناع ثابت . وكذلك كانت مقامات الحريرى وبديع الزمان وكتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ، كل ذلك كان أدب احتراف ، ويصح أن نسميه عقدة الانشاء . ولم يفكر أحد من الكتاب تفكيرا مستقيما الا ابن خلدون .

ويعجبنى من أبى العلاء انه خير مثل لما اسميه الصدق الاكبر ، وهو التوافق التام بين نفسية الانسان وعقليته وحياته . كذلك كانت حياة المعرى ، عاش أدبه حتى أصبحت حياته وأدبه شيئا واحدا . وهذا نادر جدا بين أدباء العالم جميعا . والذى نعرفه عن اكبر المفكرين أن حياتهم أوسع من أدبهم . والأدب يظل جزءا من حياة الأديب مهما يكن خطر هذا الجزء . أما أبو العلاء فأدبه يملأ حياته كلها حتى لا يكاد يكون فيها شيء غير هذا الأدب . كأنما حياته لما ضاقت ، وأدبه لما اتسع أصبحا متطابقين . وهذا التطابق يؤدى حتما الى الصدق فى التعبير . وغاية الصدق ان يكون الأدب مرآة للحياة . فاذا كان هو حياة الأديب كلها فذلك أرفع مراتب الصدق .

عاب عليه معاصروه خروجه على التفكير المألوف واتهموه بالالحاد . وسأبين فى ما بعد أن أبا العلاء كان بطبيعته متدينا . ولكنه أبى أن يؤمن ايمان العجائز ، وفضل أن يكون ايمانه بعد التفكير فى أمور الكون ، كما يأمرنا بذلك القرآن الكريم . وليس التشكيك مدعاة الى نبذ الايمان . بل قد يكون مقويا له . والواقع أن معاصريه عابوا عليه حرية الفكر مهما يكن موضوع بحثه . قال له احد الناس مرة ماذا ينقمون منك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ، وتألم لذلك أبو العلاء ورد عليه قائلا : والآخرة !

ومن دلائل حرية تفكيره قوله :

جائزٌ أن يكون آدمُ هذا   قبله آدم على إثر آدم

وسواء أكان هذا الرأى خطأ أم صوابا فهو دليل على التفكير الحر العميق .

وعابوا عليه قوله :

فى الأرض قامت ضجةٌ   ما بين أحمدَ والمسيح
هذا بناقوس يدقُّ   وذا بمأذنة يصيح
كلٌّ يحبّذ دينه   ياليت شعرى ما الصحيح

فى هذا القول يسخر المعرى من أصحاب الأديان لا من الأديان نفسها ويريد منهم ــ ان كانوا صادقين ــ أن يجمعوا على رأى واحد صحيح .

وهو فى شك من وجود اليقين فى أى أمر من الأمور وفى ذلك يقول :

إنما نحنُ فى ضلال وتعليل   فإن كنت ذا يقين فهاته
ولقد ب الصحيح آثرت الروم   انتساب الفتى إلى أمهاته(١)

(١) بحثت عن اصل هذه العبارة فلم اهتد الى شىء يدل عليه ، سوى ان بعض الامم تذكر من بين اسماء الرجل اسم اسرة امه قبل اسم اسرة ابيه .

وللمعرى بيتان مشهوران :

قال المُنجِّم والطبيبُ كلاهُما لاتحشر الأجساد قلت إليكما
إن كان قَوْلكما فليسَ بضائرى أوكان قولى فالخسارُعليكما

ومن العجيب أن فيلسوفا فرنسيا متدينـا الى أقصى حد قال ما يشبه ذلك بعد المعرى بخمسة قرون . يقول بسكال راهن على ان الله موجود . فان كان موجودا فذلك الفوز العظيم ، وان لم يكن موجودا فانك لا تخسر شيئا . وأنا اعترف أن هذا اضعف الايمان ولكنه ليس الحادا .

ولعل معاصريه غضبوا لما فى رسالة الغفران مما يشبه التهكم على من يؤمنون بنعيم الجنة المادى ، ولم يهزأ بنعيمها الروحى . ومن امثلة ذلك ما ذكره من ان الله وهب لعلى بن القارح حورية فى الجنة ، فسجد اعظاما لله القدير ، « ويخطر فى نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية على حسنها ضاوية فيرفع راسه من السجود وقد صار وراءها ردف يضاهى كثبان عالج. فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ، ويقول يا رازق المشرقة سناها ، اسالك ان تقصر عرض هذه الحورية على ميل فى ميل » . ولما اراد احدهم أن يتزوج حورية ظهرت له على شكل أوزة منع من ذلك حتى لا يقال عن بعض اهل الجنة انهم ازواج الاوز . هذا النوع من التهكم لا يعد شيئا بجانب ما رواه من يدعون العلم بالغيب ، نقلا عن ابن عباس نفسه ، من وصف عجيب للنعيم المادى الذى سيتمتع به المؤمنون فى الجنة . مثل هذا القول فى رسالة الغفران اغضب معاصريه ولا يغضبنا نحن المحدثين ، سواء رأيناه خطأ أم صوابا ، من حيث ان فيه بديلا واضحا على حرية التفكير .

وكان صادقا فى زهده ، أليس هو الذى سمى نفسه رهين المحبسين فى غير غضاضة او الم او حقد . وصف له الاطباء بعد ان

ابل من مرض طويل أن يأكل فرخا صغيرا ، فلما لمسه اجفل منه وقال « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الاسد » .

كل هذا مشهور معروف ، تحدث عنه عدد من اكبر نقاد الادب فى العصر الحاضر وبينوا لنا ما يحببه الينا من حيث صدقه واخلاصه .

* * *

وسأتناول بالبحث أسلوبه الخاص فى النثر والشعر وخاصة فى اللزوميات محاولا أن أعلل ذلك بظروف حياته ونفسيته الخاصة ، وأكثر الناس يظنون أن أسلوب المعرى كان سنة البلاغيين فى عصره ، وأنه جرى على ما جرى عليه شعراء عصره وأدباؤه . هذا قول صحيح ولكنه ليس الحق كله . فالمعرى لم يتبع معاصريه فى شىء ، ونحن نتساءل لم حذوهم فى هذا الاسلوب . الواقع أن لهذا الاسلوب عند المعرى اسبابا نفسية عميقة .

ولنبدأ بالنثر فى كتاب الفصول والغايات . وأنا من الذين يكرهون المحسنات البديعية الى حد المقت . ولا اطيق مثل قول ابى تمام (١) . بيض الصفائح لا سود الصحائف . ويخيل الى انها من قبيل الجمل التى نضعها للسكارى لنعرف مدى ما بلغت بهم الخمر . ومع ذلك أرانى اقبل من المعرى قوله فى الفصول والغايات : « بيض لهيد ، حرمت العيش الرغيد » . ويقول : « وسوداء تسود تعيش عيشة المحسود » . ويقول فى اللزوميات :

---

(١) يقول المعرى فى رسالة الغفران عن شعر ابى تمام . (اما الاصل فعربى ، واما الفرع فنطق به غبى . وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب ... انما ينكر عليه المستعار وقد جاءت العارية فى اشعار كثير من المتقدمين الا انها لا تجتمع كاجتماعها فى ما نظمه حبيب بن اوس) .

كم أمير أمِر فى عاصفات   بعلما حاب فى الحياة وحابا[1]

ويقول فى اللزوميات :

أسطرلاب حولهن جهول   فهو يرجو هدياً بأسطرلاب[2]

والغرض من بحثى هذا أن ابين سر رضائنا عن مثل هذا القول واغضائنا عن عيوبه . على حين اننا لا نقبل من غيره ما هو اجمل وارق . ولا بد أن تكون فى أدب المعرى صفات اختص بها وحده هى سر اعجابنا به ، وقبولنا اياه ، مع ما فيه من شرود ، هذه الصفات التى تحببه الينا تحتاج الى تحليل .

هذا التحيز الحديث الى ادب ابى العلاء لا يرجع الى موضوعاته فحسب ، ولا الى عمق التفكير فيه ، ولا الى جمال اسلوبه . فقد عرف ذلك كله عند غيره . فلم يبلغ قائله من نفوسنا ما بلغه أبو العلاء . فموضوعات أدبه من زهد وتشاؤم واحتقار لآمال الناس وأمانيهم ، وما فيها من تأكيد لما يكون عليه الناس من غرور وجهل وظلام ، وما يتحدث عنه من حيرة العقل فى فهم الكون وتخبطه فى معرفة الحقيقة ، كلها أمور سبق للكثيرين الخوض فيها . والموضوعات التى يتناولها الأديب ليست سر عظمة أدبه . وكثيراً ما نعجب بالمجون كما نعجب بالزهد . وتطربنا بهجة السرور كما يحركنا عمق التشاؤم ، وقد يعجبنا الأدب الغارق فى شهوات النفس المتصل بالحياة إتصالا عنيفا عارما ، كما نعجب بالانصراف عن الحياة واحتقارها ، والتغلب على شهوات النفس . فليست الموضوعات التى يتناولها الأديب عاملا قويا فى اكبار شأن أدبه .

---

(١) أمِر : أثير التراب عليه . حاب : انزلق الى الاثم ، وحاب الثانية من المحاباة

(٢) يعنى ان الجهول يتعطش الى الاسطر المكتوبة ، راجيا ان يهتدى بهـا مثل الفلكيين الذين يهتدون بجهاز الاسطرلاب .

ولا نزاع ان أبا العلاء من اعمق رجال الأدب العربي تفكيرا ، وقليل من كتاب العرب من بلغ شيئا مما بلغه المعرى فى هذا الباب ، وقليل منهم من خطر له أن من الادب أن يفكر الاديب فى العالم والانسان وحسبوا ذلك من أعمال الفلاسفة لا الادباء . وليست الحكم والمواعظ والامثال دليلا على التفكير ، واغلبها سطحية لا تمتاز الا بتركيز عباراتها .

ومع كل ذلك فانني لا اظن ان عمق التفكير هذا سبب من أسباب تعلقنا بأدب المعرى وتغاضينا عما فيه من عيوب . ولا يرجع اعجابنا بأدب المعرى الى شيء من ذلك . وانما يرجع الى صفة خاصة يقاس بها الأدب الرفيع ، لا تتعلق بالموضوع أو عمق الفكر أو جمال الاسلوب ، وان يكن ذلك كله من مقوماته . هذه الصفة التى يبلغ بها الأدب أرفع مراتبه هى قوة التعبير . والقوة تكون فى الصدق والدقة ، على أن تكون تلك القوة التعبيرية غير واعية ، وما يقوله الأديب نصا صريحا مهما يكن عظيما لا يرفع من أدبه الا الى قدر محدود . وانما ترفعه دلالته غير الواعية ، دلالة قوية صادقة دقيقة على نفس الأديب أو بيئته أو على النفس الانسانية كلها ، وهذا سر حبنا للمعرى واعجابنا به .

واذا كان أدب المعرى يملأ حياته كلها فان اللغة العربية ملأت أدبه كله . هذه ظاهرة عجيبة . فاللغة لم تكن عند المعرى وسيلة يتحدث بها الى الناس فيفهمونه ويفهمهم ، كما هى عند الناس جميعا ، ولم تكن مجالا يتمثل فيه فنه ، كما هى عند الأدباء قاطبة ، يظهر فيها فنهم كما تظهر فنون غيرهم فى التصوير والنحت والموسيقى . وانما كانت اللغة عند ابى العلاء هى كل فنه مادة وروحا ومجالا . قصر حياته وأدبه — وهما شيء واحد — على اللغة العربية . فهى معشوقته ورفيقته ، وهى كل لذته وكل علمه وكل عمله . وغرامه بها هو الذى حمله على الا يترك شاردة منها الا وعاها ، واستطاع أن يعرف عنها كل ما يستطيع انسان أن يعرفه ،

ومن هنا كان غرامه بعلومها واقتنانه بغريبها ، وتلمس كل ما كان فيها صعبا معقدا .

وليس ذلك غريبا على ادباء العرب . واكثرهم قضى عمره لا يعرف شيئا غير اللغة . كان ذلك نكبة نكب بها هؤلاء الادباء فى عصور طويلة فى تاريخ الادب العربى . ولم يقع المعرى فى مثل هذه النكبة على شدة غرامه باللغة .

والفرق بينه وبين غيره من الادباء ان هؤلاء كان علمهم باللغة سدا بينهم وبين الحياة ، حجبهم جمال اللفظ عن ان يروا ما فى النفس البشرية والحياة الانسانية والعلاقات بين الناس من جمال وروعة . اما ابو العلاء فكانت اللغة عنده نافذة اطل منها على الحياة وكانه اصبح يرى الحياة من خلال اللغة . عرف العواطف الانسانية ومشكلات الحياة من طريق اللغة وادبها . وهى من غير شك نافذة ضيقة يصعب ان يرى منها الانسان اسرار الحياة ، ويعسر على اكثر الناس ان يبلغوا من هذه النافذة علما بالحياة يكفى لدقة تصويرها . ولكن حدة الذكاء جعلته يستطيع ما لم يستطعه احد قبله او بعده من جعل اللغة وعلومها سبيل العلم بالحياة واسرارها .

ومن الامور التى تدل على ذلك دلالة واضحة ظاهرة عجيبة فى ادب ابى العلاء وهى كثرة تشبيهاته المستمدة من اللغة وعلومها . ويكثر ذلك فى اللزوميات . وبصفة خاصة فى اول اللزوميات . واحسب ان التشبيهات اللغوية تقل فى اواخر اللزوميات بعد ان استقر اسلوبها واصبح نظمها عليه اسهل ، وحريته فى تاليفها اكبر .

وامثلة ذلك كثيرة . من ذلك قوله فى العزلة ، فهو يشبه العزلة بالبيت المفرد لا تقع عليه عيوب القافية كالاسناد والاقواء .

كالبيت أفرد لإيطاء يلحقه ولاسنادٌ ولا فى اللفظ إقواءُ

وهو يشبهه بعده عن التلبس وعدم الفته اياهم بما يقع فى اللغة من استحالة الجميع بين الذال والظاء .

فلست لهم وإن قربوا أليفا كما لم تألف ذال وظاء

وهو يقول انه مقيد كما قيدت قاف رؤبة ، يشير بذلك الى قول رؤبة فى رجزه المعروف (وقاتم الاعماق خاوى المخترق) حيث القاف مقيدة بالسكون .

مالى غلوت كقاف رؤبة قيدتْ فى الدهر لم يقدر لها إجراؤها

وهو يصف الزمان فيشبهه بقصيدة لم يقدر الشاعر على (ايطائها) .

وكأنما هذا الزمان قصيدةٌ ما اضطر شاعرها إلى إيطائها

وفى نثره اشارات كثيرة من هذا الطراز . من ذلك قوله فى الفصول والغايات (واذا تقويت لفعل الحسنة اقويت) . يشير بذلك الى الاقواء فى القوافى، وهو اختلاف اعرابها فى الأبيات المختلفة . ويقول (ومتى انكفأت الى الخير اكفأت) يشير بذلك الى الاكفاء فى الشعر ويقول (من كان ذا عقل ببسيط فهو كالجزء الثالث من البسيط) وهو اصطلاح عروضى .

وبعد ، فماذا تدل عليه هذه الظاهرة التى اختص بها ادب ابى العلاء وحده . الرأى عندى ان المعرى كان يستخدم الحقائق اللغوية فى شعره كما كان الشعراء الأوربيون يستخدمون الميثولوجيا الاغريقية . ولعله ليس من الاسراف أن نسمى هذه الظاهرة فى أدب المعرى الميثولوجيا اللغوية . وكانوا لا يفتأون يضربون الأمثلة ويذكرون تشبيهات واستعارات كلها مستمدة من أساطير الاغريق . وعلة ذلك ان أساطير الاغريق كانت مثلا اعلى للشعر الجميل وأكثر وقائعها

نظمها من قبل شعراء سابقون ابدعوا فى نظمها . ولا تكاد نجد عاطفة انسانية او موقفا جميلا من مواقف الحياه كالحب والغضب والبطولة والتضحية والغيرة الا كان له فى هـذه الأساطير مثل رائع جميل . فكان شعراء اوربا يجدون فى هذا الميدان الخصب كل ما يريدون ، وكان لا يعجبهم ان يستمدوا الوحى من أحداث وقعت فعلا . وكان الراى السائد اذ ذاك أن الحياة قديمها وحديثها أقل قدرا من أن توحى شعرا جميلا او تعبيرا عن احساس رائع . ومن اسباب كثرة الاشارة الى الميثولوجيا الاغريقية عند شعراء اوربا فى بعض العصور ان ذلك كان يدل على الثقافة العالية ، فلم يكن الرجل يوصف بالثقافة حتى يكون عالما بهذه الاساطير متعمقا فى تفاصيلها . وكان هـذا الراى سائدا الى عهد ليس بالبعيد . ولم يشذ عن هذا الا شاعر الانجليز الاكبر ، لقد كان علمه باللاتينية قليلا وباليونانية أقل. وكان هذا مثار عجب الناس جميعا . أما شاعرهم الثانى (ملتون) فكان من اكثر أهل زمانه علما بهذه الأساطير وذكرا لها فى شعره .

لمثل هذه الأسباب أو قريب منها كان المعرى يكثر من التشبيهات اللغوية والنحوية (١) اذ كانت اللغة عنده اكبر مصدر لعلمه بالحياة . وكان طبيعيا أن يلجأ الى اللغة التى يعرفها حق المعرفة يلتمس فى علومها مصادر للتشبيه والاستعارة . وكانت معرفة اللغة اذ ذاك غاية الثقافة والعلم . على أن المعرى كان فى موقف اشد حرجا من اضرابه الاوربيين لأنهم يستمدون وحيهم من شعر جميل وهو يستمد وحيه من علم جاف لا جمال فيه .

على انه اذا كانت هذه الميثولوجيا اللغوية تفسر كثرة هذا النوع من القول فى ادب ابى العلاء فانها لا تكفى لشرح ما لهذه الصفة الخاصة من دلالات عميقة تتعلق بحياته وعقليته .

---

(١) قارن بين هذه التشبيهات اللغوية الغريبة الغريبة بقول المتنبى :

إذا كان ماتنويه فعلا مضارعاً مضى قبل أن تأتى عليه الجوازم

ولشرح ذلك اقول ان التشبيه عند غير المبصرين نوعان : يكون تارة مما يفوقون فيه المبصرين كالليل الذى تهاوى كواكبه . وهذا هو التحدى . وبشار بن برد فى قوله هذا يتحـدى الزمن والناس فيقول ما لا يقـدرون عليه وهم مبصرون . ولم يكن فى بشـار أثر مما يسميه الناس اليوم مركب النقص .

والنوع الآخر هو التشبيه بالمعنويات التى يستوى فيها المبصر وغير المبصر . وأذكر مثالا لذلك قصيدة صغيرة يصف فيها الشاعر الثلج الذى يتساقط من السماء لطفل ضرير فيقول :

انه ابيض يا عزيزى كرداء الملائكة

ابيض ابيض ابيض (١)

انه خفيف يا عزيزى كالفكرة او هو اخف

خفيف خفيف خفيف

وهو يسقط يا عزيزى من السماء المثقلة

بطيئا بطيئا بطيئا

يسقط وأنا اقبل عينيك

هكذا هكذا هكذا

لهذه القصيدة الصغيرة اثر بالغ فى نفس الانسان لصدق عاطفتها

---

1. It is white my dear as angls' dress,
   white, white white.
   It is light, my dear, as a thought or less;
   light, light, light,
   It falls, my dear, from the heavy skies,
   slow, slow, slow.
   Even as I kiss your eyes,
   So, So, So,

وقــوة تعبيرها . وهى تثير فينا حزنا عميقا على الشاعر وهو على الأرجح والد هذا الطفل ، وعلى هــذا الطفل الذى وصف به الثلج وصفا يستطيع أن يفهمه . فنحن والطفل الضرير ســواء فى فهمنا لبياض رداء الملائكة . ونحن وهو سواء فى فهمنا لخفة الفكرة فى ذهن الانســان . وفى اختيار مثل هذا النوع من التشبيه ما يجعله شديد الأثر فى نفوس سامعيه .

ويرجــع هذا الأثر الى صــدق التشبيه بالمعنــويات عند غير المبصرين وعمق دلالته . وكذلك تشبيهات المعرى التى نحن بصددها. فهو يقول : انه مقيد كقاف رؤبة . وقاف رؤبة هنا من ناحية الدلالة التعبيرية تعادل رداء الملائكة فى القصيدة الصغيرة . ولم يكن للمعرى ان يقول انه مقيــد قيد برومتيوس الى الصخرة تأكل النسور من كبــده . هذا تشبيه يستطيعه الشــاعر الأوربى العــالم بأساطير الاغريق . والاختيار هنا يرجع الى ما علمناه من أن علوم اللغة كانت مصدر علم أبى العلاء بالحياة .

واذا كان الفيل الذى تهاوى كواكبه قولا يتحدى فيه الشاعر الزمن والنقص الذى فيه ، فقــول المعــرى يدل عــلى الاستسلام والخضوع والتواضع . ومن الاستسلام ما يكون أكثر شجاعة من التحدى (ولو كان المتحدى هو الزمن نفسه) ومن الخضوع ما يكون غاية القوة كالخضوع للدين والأخلاق والقــانون . ومن التواضع ما يكون اقصى درجات الكبرياء . واذا كان تحدى بشار للزمن مما يعجب الكثيرين ، فان استسلام المعرى هو عندى أسمى وأروع . ولكل مزاج محبب اليه .

على ان أروع ما فى آداب ابى العــلاء وأعظمه دلالة على اعماق

نفسه دلالة خفية غير واعية ، هو من غير شك اللزوميات (٢) . هذا التأليف العجيب يدلنا على نفسية ابى العلاء بما لا يدل اى عمل ادبى آخر على نفسية مؤلفه ، وفيه مفتاح تلك النفس التى أرادها صاحبها مغلقة . ومنه نستطيع تحليل عقيدته التى لم يرد لها هو تحليلا دقيقا ولم يشأ أن يطلع الناس عليها . بل لعله هو لم يدرك كنه نفسه ادراكا تاما ، كما ندركها نحن حين نتعمق أسلوب اللزوميات .

وكلنا نعلم اختلاف الناس فى أمر عقيدة ابى العلاء . وهل كان ملحدا او كافرا ، كما يقول أعداؤه ، او كان مؤمنا كما يقول محبوه. واكثر الناس على انه كان متشككا ، وانه كان حائرا بين الايمان والالحاد ، شأنه فى ذلك شأن كثير من المفكرين الذين يأبى عليهم عقلهم أن يؤمنوا ايمان العجائز ويأبى عليهم طبعهم وتقديرهم للايمان والأخلاق أن ينكروا الدين انكارا تاما . ولعل اكبر ما أحفظ اعداء المعرى عليه حملته على رجال الدين فى عصره وطعنه فى أولئك الذين يعرضون تدينهم على الناس جهرا يبتغون الزلفى الى عامة الناس فى رياء ونفاق لا يستطيع مثله أن يقرهم عليه . على ان هذا لا يعد فى الواقع الحادا . والقرآن الكريم ينعى على المنافقين مثل ذلك . والاسلام صريح فى انكاره هذا النوع من التدين . وانكر السيد المسيح على أحبار اليهود فى عصره مثل ذلك .

---

(٢) ذكر المعرى فى مقدمة لزوم ما لا يلزم فصلا طويلا عن عيوب القافية ، ويكفى فى العادة ان تكون القافية (الروى) متعلقة بالحرف الاخير من البيت ، ولزوم ما لا يلزم أن يجعل القافية اكثر من حرف ، مثال ذلك اول قصائد اللزوميات فالقوافى فيها فرياء وقرياء وسباء وحباء وخباء ورباء وصباء وعباء وكباء والتؤباء وهباء واباء واباء وباء وقباء . فالتزامه الباء من لزوم ما لا يلزم لانه كان فى غنى عنها وكان يكفيه قافية الهمزة وحدها . وذكر من عيوب القافية الايطاء والسناد وغيرها من المصطلحات التى لا نرى داعيا لشرحها تفصيلا .

والذى اعتقده ان المعـــرى كان بطبيعته متدينا غاية التدين . فالتدين عنده طبيعة كامنة فى النفس وصفة ملازمة لها ؛ ودليل التدين امران : ان يعمل الانسان اعمـــالا صالحه ليس مضطرا الى عملها الا بدافع من نفســه . وأن يمتنع عن أمور سيئة لا يمنعه منها الا وازع من نفســه . فالبوذى الذى يتعبد فى هيكله والمسلم الذى يقوم الى الصلاة فى أوقاتها حريصا عليها ، والمسيحى الذى يعمـــد طفله ، واليهودى الذى يبكى أمام حائط المبكى ، كل اولئك يعملون ما لا يلزمهم عمله ، لا يدفعهم الى ذلك الا ايمانهم ، والبراهمى الذى لا يمس بقـــرة بسوء ، والمســـلم الذى لا يأكل الخنزير ولا يشرب الخمـــر ، واليهودى الذى لا يوقـــد شمعة يوم السبت ، والمســيحى الذى لا يأكل اللحم يوم الجمعة الكبيرة ، كل أولئك يلزمون انفســهم ما لا يلزم ، لا يمنعهم من عمل ما لا يعملون الا وازع نفسى . وهذا كله تدين لا شك فيه .

فالتدين فى الواقع ليس الا لزوم ما لا يلزم ايجـــابا وســـلبا . والمعرى على ذلك من أكثر الناس تدينا ، وأعمقهم ايمانا واخلاصا لان طبيعته تابى عليه غير ذلك .

على أن هذا كله أمره الى الله لا الى الناس . وانما الذى يعنينا أن يكون المعرى قد دل على هذه الطبيعة فيه وهذا الايمان العميق دلالة لا شك فيها بالأسلوب العجيب الذى ابتكره فى اللزوميـــات . ولا أعرف أديبا غيره بين أدباء العالم وفق هذا التوفيق فى التعبير عن نفسه تعبيرا تاما صادقا غير واع ولا مقصود .

وقد يشبه المعرى فى لزومه ما لا يلزم كثير من الزهاد والمتصوفين والرهبان . ولكن احدا من هؤلاء لم يملك عليه زهده نفســـه حتى يجعله يلتزم ما لا يلتزم فى شعره . وليس أدل على ما اذهب اليه من أن المعرى عاش أدبه ، وجعل حياته كلها مقصورة على أدبه . ليس أدل على ذلك من اللزوميات فى صياغتها لا فى ما تحويه من زهد أو وعظ أو تشاؤم أو شك . ولعل شكه كان مقصورا على فكره وعقله .

اما ايمانه بلزوم ما لا يلزم فهو دليل على التدين الكامل فيه . وقد اظهره على هذه الصورة القوية دون أن يريد ذلك ارادة واعية .

هذا هو مغزى اللزوميـــات ، ولعله كان يحســـبها مرانة على الصعب من النظم ، ولعله كان يريدها برهانا على تمكنه من اللغـــة التى أحبها ، فاذا هى دليل قاطع على قرارة نفســـه التى حرص حياته كلها على الا يعرضـــها على الناس . فاذا هى واضحة كل الوضوح من جراء هذا الاسلوب فى التاليف .

هذا هو سر عظمة المعرى تفكيرا وادبا . ويزيد اعجابنا بأدبه انه اتخذ الى هذا الادب سبيلا ضيقا هو العلم باللغة التى لم يعرف الدنيا الا من خلالها ، ومع ذلك عرف الحياة والطبيعة البشرية خير معرفة ، ودل عليها بالوان من الادب خاصة به لم يفكر فيها غيره .

والمعرى كنز أدبى وذخر لنا سنحرص عليه دائما ، ولعله من الصعب أن نجعل منه أديبا عالميا لشذوذ سبيله الى العظمة الادبية اذ كان هذا السبيل هو اللغة العربية وعلومها . ولا ينقص من قدر ادبه أن غيرنا لا يشاركنا فيه ، وأن تكون نحن المتكلمين بالعربيـــة وحدنا قادرين على أن ندرك قيمة هذا الكنز العقلى . ولعل ذلك يكون أقوى الأسباب التى تدعونا أن نكون أشد الناس حرصا على ادب المعرى وتقديرا له .

فهرس

	صفحة
مقـــدمة	٣
المعلقـــات	٧
عمر بن ابى ربيعة	٢٠
نماذج من شعر الطبع (ديوان الحماسة)	٣٣
شـــعر الاحتراف	٥٥
تحول الشـــعراء فى عصر الامويين	٦٣
الفرزدق	٦٩
جرير	٧٥
بشار بن برد	٧٧
النابغة الذبيانى	٧٩
ابو نواس	٨٧
الموسيقى . . والتصوير فى الشعر العربى	٩٣
الموسيقى فى الشعر العربى	٩٧
المتنبى	١١١
المتنبى فى مصر	١٢١
الحكمة فى شعر المتنبى	١٣١
ابو العلاء المعرى	١٤٣

« طبع بمؤسسة دار الشعب »

● **المراسلات :**

التحرير : ١١١٧ كورنيش النيل « ماسبيرو » تليفون ٩٧١٠٥٦

الادارة : ٢٦ شارع منصور « باب اللوق » تليفون ٣٣٩٧٦ ٣٣٩٧٧ (صندوق بريد ١٣٢٨)

الاعلانات : يتفق عليها مع ادارة المجلة تليفون ٣٣٩٧٨

دكتور

محمد كامل حسين

يجد المثقفون المعاصرون صعوبة فى فهم الشعر العربى ولا يتذوق جماله الا قلة من المختصين فى دراسة الأدب وهذا نقص كبير فى الثقافة العربية الحديثة ، وللمحدثين بعض العذر فى انصرافهم عن الشعر لأننا نقدم لهم شعرا لا يمت الى حياتهم الفكرية بسبب . وهم يجدون فيه مبالغات غير مقبولة عندهم ، وتشبيهات متكلفة واستعارات بعيدة ، ومحسنات لفظية ومعنوية يأباها الذوق العصرى . ثم انهم لا يجدون فيه ما يشبع رغبتهم فى جمال القول ، ولا يجدون فيه تحليلا للعواطف الانسانية ، ولا لعواطف الشاعر نفسه . وهم يرون أن الشعر العربى صناعة خاصة قوامها المهارة والافتنان فى القول ، وكل هذا بعيد كل البعد عما يرجوه المثقفون من الشعر . وليس لنا أن نعيب على العرب اعجابهم بهذا النوع من القول . ذلك أن وظيفة الشعر فى الحضارة العربية تختلف اختلافا بينا عن وظيفته فى الحضارات الأ
عصر ذوقه الخاص ، وعلينا أن نحسن اخ
الى المتأدبين من هذا الشعر ، وان ندر
حديثة تقوم على البحث فى شخصية الش
نفسيته فتصبح بذلك دراسة الشعر درا

وقد حاولت فى هذا الكتيب أن أدر
العربى دراسة حديثة وأن أقدم نماذج من
يمكن أن يحتذيها النقاد بعد ذلك فيكون ت
للشعر أكثر عمقا واتقانا من محاولتى هذه

الثمن ٢٠ قرشا

طبع بمؤسسة دار الشعب